سياسة العلم وتمثل معايير الخطاب الناجح
"الغزالي نموذجا"

أ/خالد حباسي
أستاذ بجامعة الوادي

عرفت التجربة الإسلامية الحديثة والمعاصرة ـ في تركيبها النظري والعملي الشامل ـ ثلة مرموقة من الرجال الذين رفدوها بعلم نظري غزير وبعمل دعوي وفير. إننا لا نفتأ نذكر محمد بن عبد الوهاب، والقاضي الشوكاني، وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وعبد الحميد بن باديس، وحسن البنا، والقاسمي، والألوسيين، والندوي، والمودودي، وسيد قطب، وكثيرين آخرين، لكننا لا نملك إلا الإقرار بأن الشيخ الغزالي كان في تقدير جملة الناظرين، من أبعدهم أثرا في الملإ منهم..[1]

يتميز أثر الغزالي الظاهر من حيث استيعابه الواقع المعاصر استيعابا سليماً من خلال منهج علمي موضوعي يتتبع جذور هذا الواقع ومساره ويكشف جوهره وروحه ويميز حقائقه الموضوعية عن أوهامه الخيالية أو المؤقتة ويستشرف آفاقه وتوجهاته المستقبلية.

وكذلك في بلورة معالجة مناسبة للواقع المعاصر والتنظير له فقهاً وفكراً، بناء على قراءة مباشرة للبيان أو المكون الشرعي، وفق مناهج استنباط إسلامية جديدة أو مطورة تستعين وتستأنس، ولكن لا تلتزم بالضرورة بمضامين ومناهج الخطاب الإسلامي الموروث. وقد كان للشيخ جهود مشكورة في مقاومة الجمود والتغريب معا، لأن هذين الطرفين– معا– ضاران بالحقائق الإسلامية.

وكان بفكره الثاقب وعرضه العلمي مقبولا لدى هؤلاء وأولئك، محترما حتى مع الذين يختلفون معه، فإشعاعات الوحي الأعلى، ولمعات العقل الذكي، والثقافة الشمولية، كانت مبعث رضا وتقدير من جميع من يتعاملون مع الشيخ في فكره[2].

وخطاب الغزالي قد كان من أقوى الأسلحة التي كسحت جناح التغريب، إذ أن خطابه هذا وكتاباته وإن جاءت في معرض دفاع حار عن الإسلام، إلا أنها لم تكن مجرد هتاف أجوف، وإنما اشتملت على مادة علمية أولية اتخذت بديلا لطروحات التغريب.

وكما يقول منير شفيق في كتابه "الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر" الصادر في أوائل الثمانينات فقد (كان من الممكن للفكر المتغرب قبل ثلاثين، أو عشرين سنة، أو عشر سنوات، أن ينظم القصائد الطوال في مدح علمه الاقتصادي وبرامجه الإصلاحية)[3]، ولكن بعد فشل تلك التجارب ونهوض البديل فقد كسدت تلك الادعاءات.

وإذا بحثنا عن الأسباب الرئيسة لنحاول من خلالها إعطاء تفسير لظاهرة تأثير الغزالي في المجتمعات الإسلامية والعربية خاصة، فإنه باستطاعتنا أن نعد المرجع الأساس في هذا الأثر الفعال هو الظاهرة الخطابية لديه وما تميزت به عن غيرها من الخطابات. إذ الباحث سيجد أنه قد اختص بسلطة نادرة استطاع بواسطتها التأثير على عقول القراء ووجدانهم -: التأثير الممارس على مستوى القناعة العقلية أو على مستوى القناعة الوجدانية - وهذه القدرة التأثيرية قل أن تعدلها سلطة فيما قد يطلع عليه من تراث المتقدمين أو المتأخرين من الكتاب والمفكرين. ويجمع الدارسون لفكر الغزالي على هذه المسألة، وذلك بالنظر للتأثير العميق الذي تركه هذا الخطاب في حياة الأمة الإسلامية وحناياها[4].

- التمثيل بخطاب "محمد الغزالي" ومبررات الاختيار:

وقد يكون من المفيد التمثيل بمعاصر لنا وهو الشيخ محمد الغزالي الذي عرف خطابه انتشارا واسعا في الأوساط، لنتتبع نماذج من هذه الخطابات الواردة في كتبه، مستندين إلى ما قررناه من ذكر المحددات ومدى الربط بين الخطاب والمكون الشرعي من خلال عملية التأصيل، واختيارنا له كعينة نطبق على خطابه هذه القواعد إنما تم لاعتبارات أربعة:

أولهما: أن الرجل خريج أكبر جامعة للعلوم الشرعية في العالم السني، هي جامعة الأزهر التي حصل منها على شهادة العالمية، من معهد أصول الدين، فهو بهذا يمثل العلماء الذين نهلوا من العلوم التقليدية المعروفة حينها في أغلب الجامعات والمعاهد الإسلامية.

وأما ثانيها: فلأنه كان يعد نفسه امتدادا للمدرسة الإصلاحية التي كان من روادها المشاهير جمال الدين الأفغاني، محمد عبده ورشيد رضا.

وثالث هذه الاعتبارات التي زادت من مزايا الاختيار الموضوعي انخراطه في العمل المبكر لخدمة القضية والدعوة الإسلامية مع جماعة الإخوان المسلمين، وأنه

كان كذلك من أقطاب صانعي هذا الفكر الذي انطلق مع المؤسس الأول حسن البنا، والذي وصفه الغزالي كما وصفه غيره بأنه من مجددي الإسلام في هذا العصر، ولا يخفى أن من أخص مظاهر التجديد هو الأدوات والآليات المستخدمة فيه وعلى رأسها "التجديد في الخطاب"...

ورابع هذه الاعتبارات هو أن فكر الرجل كان محل دراستي لرسالة الماجستير، التي تبين لي من خلال المضي قدما في الطواف بفكر الرجل وخطابه الذي هو وعاء هذا الفكر، أن الغزالي فيما أحسب قد توافر في خطابه جملة من الخصائص أعطت هذا الخطاب سلطة، قل أن تعدلها سلطة لدى المتقدمين فضلا عن المتأخرين، فكان أهلا لأن أستشهد به في هذا المقام.

لقد طرق قلم الغزالي أغلب العلوم الشرعية لا بغرض إعادة إنتاج الفكر الإسلامي الموروث في هذا الميدان، وإنما بغرض الاهتمام بمعالجة القضايا التي طرحها عصره مستخدما هذه العلوم.

و"قد عمل الشيخ منذ بواكير نشاطه الفكري على ترسيخ المبادئ الأساسية للفكر الإسلامي، كي تكوّن انطلاقة قوية، وتخطو خطواتها في المسار السليم، وهو من استوعب مناهج الأصوليين، ومناهج الفقهاء، ومناهج المتصوفة، ومناهج اللغويين، ودقق ومحص وغربل وقارب واستخلص، فجاءت رؤيته المنهجية، تعمق الركائز الإيمانية، وتجذر الأصول العقائدية، وتعيد المسلم إلى المنابع الصافية من كتاب الله وسنة رسوله، فالتوحيد مبدأ كل شيء وأساس وحدة الخلق، وعليه يقوم بناء الكون، والحياة، والإنسان، والكائنات، والخليقة فذاك كل متكامل، والنظام الكوني تضبطه السنن والقوانين، والوعي بهذه السنن، والأخذ بها شرط لازم للنظام المعرفي والعلمي، وضمان لاستقامة الحياة وعمرانها، ولاستقامة خلق المسلم وانضباط سلوكه اتساقا مع هذه السنن وإعمالا لها.

لذا فقد ذهبت رؤيته المنهجية المضمنة في خطابه إلى تأكيد الوعي بالسنن القرآنية، سنن الله وقوانينه في المجتمعات البشرية، والأخذ بها"[5].

سلطة الخطاب ومسألة سياسة العلم:

يقول أنور الزعبي في مؤلفه القيم "مسألة المعرفة ومنهج البحث عند الغزالي"[6]: (يكاد يكون إجماع على أن لخطاب الغزالي سلطته البالغة، بغض النظر عما إذا

كانت هذه السلطة إيجابية أم سلبية... والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل بلغ خطاب الغزالي هذه السلطة عفو الخاطر؟ أم أنها لحقته بمجرد اشتغال صاحبه في القضايا الفكرية المتنوعة...؟ أم أن له خصائص أخرى، لعبت دورا في تشكله على النحو الذي جاء عليه فأضفت عليه سلطته المجمع عليها؟ إننا لو استعرضنا إنجازات المفكرين الإسلاميين قبل الغزالي وبعده، لبدا لنا بسهولة أن من بينهم ولا سيما البارزين منهم من هو أفقه من الغزالي مثلا.. أو من هو أعلم منه في مجالات أخرى. بيد أن هذا لم يجعل من خطاب أي منهم خطابا ذا سلطة حقيقية بالغة التأثير كخطاب الغزالي.

فيما يذهب إليه هذا البحث، فإن سلطة خطاب الغزالي قد نتجت عن مراعاته لمسألة مهمة هي: "مسألة: سياسة العلم " وهي مسألة تهتم أساسا بتدبر كيفية استيعاب الخطاب وتشغيله في الأوساط المختلفة التي نقدر أن الغزالي قد راعى أكثر من غيره متطلباتها وبكثافة في شتى مناحي خطابه)[7].

ولا أدل على هذا الأمر من تقرير الغزالي نفسه له في مقدمة كتاب "ليس من الإسلام" إذ أنه: (رأى أن يضفي على الأبحاث التي سيطرقها الطابع العام، وأن ينزل بها إلى جماهير القراء، وأن يحررها- جهد الطاقة - من الاصطلاحات الفنية، ولو تجوّز قليلا في التعبير والعرض ما دام أنه يراعي الأمانة في سوق الحقائق المجردة.

هذا على الرغم من أن الأبحاث المدروسة قد جرت التقاليد على دراستها في معاهد خاصة، ولأصحاب ثقافة دينية عالية، والدافع إلى ذلك – توطين النفوس على قبولها حتى يعرف الدين على بصر، وتهجر الخرافات الدينية عن فقه، وأن تقرّب إلى جماهير المسلمين ألوانا من العلم حرموا منها، وكان ينبغي أن تكون شائعة بينهم متداولة)[8].

وإذا ما كان الخطاب المعرفي باعتباره تدليلية تبليغية توجيهية، يهدف إلى دفع متلقيه كي يتمثله ويعمل بمقتضاه، ولا يحقق الخطاب هذه الأغراض إلا إذا استوفى صفاته أي أن يجيء تدليليا تبليغيا توجيهيا بمعنى الكلمة.

ولكي يصل الخطاب على هذا النحو إلى الدرجة التي يكون معها ذا فاعلية بإزاء متلقيه والوسط الذي يشتهر فيه، ليصبح هذا الوسط حفيا به إلى درجة الاشتغال، لا بد أن يأخذ هذه المعايير بعين الاعتبار، وأن تتحقق فيه تحققا مشبعا،

مما يتطلب معه الأمر أن يقف صاحب الخطاب على هذه المعايير، وأن يتمثلها ليصوغ خطابه على الوجه الذي تقتضيه.

(والمعايير في هذا المجال عديدة ومتنوعة، وقد يصعب حصرها، بيد أنه من الممكن في هذا المقام الإشارة إليها إشارة عامة، وذلك من خلال معرفة أبرز القضايا التي تجعل الخطاب باعتباره (فعالية، تدليلية، تبليغية). متحققة فيه والتمثيل لكيفية استعمال المفكرين ولا سيما الإسلاميين منهم هذا الأمر بدرجات متفاوتة، تطلعنا على القيمة التي يتسنمها خطابه إن هو راعى مقتضاها على سبيل المثال نذكر:

1 . **الناحية التدليلية:** (فإن أي خطاب معرفي يتمتع بسوية جيدة، لا بد له أن ينطلق من مراجعة نقدية جادة لأعمال سابقيه، فضلا عن مراجعة الفكر السائد في عصره)[9]، وقد تمثلت هذه المراجعات النقدية في أغلب آراء الشيخ الغزالي وأفكاره، وإن الدارس المتفحص ليجدها مبثوثة بارزة في جملة من مؤلفاته.

وتأليفه لكتاب "تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل" إنما انطلق فيه والغاية الأساسية المهيمنة عليه هي: وجوب النظر في إعادة بناء برامج العلوم النقلية الإسلامية، وطرائق تدريسها، وإصلاح مختلف الجوانب العملية التعليمية المتعلقة بها، وغربلة التراث الإسلامي لاستبقاء ما يوافق الأصليين، واستبعاد ما عداه.

وكذا كتابه "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" فقد ضمّنه مراجعة الفكر السائد في بعض الأوساط الإسلامية، ونقده من خلال منهجه الأصولي المعتدل، ليكفكف من غلواء تطرفه.

(وإضافة إلى المراجعة النقدية، فعلى صاحب الخطاب كذلك أن يدلل على سلامة التوجهات البديلة أو المطورة: التي يسير فيها وذلك بتسويغها وبيان سلامتها المنطقية، كي يحمل متلقي الخطاب على تمثله تمثلا جيدا، ثم الاعتقاد به والانصياع لمقتضاه، وجميع ذلك يتطلب صدور صاحب الخطاب عن منهجية متماسكة لها عناصرها ومقوماتها.

ومن عادة الخطاب علي هذا الوجه كذلك أن يحمل رؤى تبشيرية [10] لها جدتها وجديتها المتجاوزة للرؤى السابقة، أو على الأقل المعمّقة لها إن تطويرا أو تعديلا،

لترتقي الصورة المعرفية إلى المستوى الذي كانت عليه)[11]. في هذا الإطار ينبه الغزالي أنه إذا كانت قاعدة الإعلام عندنا أن يعرف الناس من نحن؟ وما رسالتنا في الحياة؟ فإن ذلك يتقاضانا أن ننقد أنفسنا، وأن ننبه إلى أخطاء وقع فيها الخاصة والعامة، لا تعتبر ترجمة أمينة لكتابنا وسنة نبينا (أعتقد أنه يجب أن ينتعش بين المسلمين فن النقد الذاتي، وهو فن يقوم على محاكمة الواقع الإسلامي إلى المثل المقررة في الإسلام ذاته.

وبيان مسافة القرب والبعد والصواب والخطإ في هذا الواقع المضطرب، وهذا النقد هدفه إنصاف الإسلام ذاته.

إن ثم إجماعا على أن المسلمين منحرفون عن دينهم، وأن هذا الانحراف يشمل سلوك الفرد والمجتمع، وتكاد الدول الإسلامية كلها تعد في جملة الدول المتخلفة، وهذا الهوان الحضاري سوف ينسحب على الإسلام ذاته شئنا أم كرهنا، وسيظن كثيرون أنه يكمن وراء قصورنا وتقصيرنا)[12].

وصدور خطاب الغزالي عن منهجية متماسكة ذات عناصر ومقوّمات معتبرة يتجلى في قوله بعد هذا: (ولكي نجنب ديننا هذا الظلم الشديد، ينبغي أن نذكر الحقيقة مستقاة من مصادرها الدينية الوثيقة ثم نذكر العوج الملحوظ في أحوالنا وأفعالنا وبراءة الإسلام منه، وهذا النقد الذاتي ينهض على دراسة عميقة للإسلام، وتاريخه وحضارته، ولا مانع البتة من أن تتسع دائرته، لتتناول أخطاء وقعت في الماضي، فإن المسلمين غير معصومين، أما الإسلام نفسه فمعصوم)[13].

والحقيقة أن وقفات المراجعة والتقويم داخل العمل الإسلامي عموما، والمتعلق بالجانب السياسي منه خصوصا، كان أكثر من ضرورة وواجب، خاصة بعد أن اكتشفت الحركات الإسلامية أنها كانت عاطفية ومتسرعة في أحكامها وتقديراتها ومواقفها، والتقويم في هذه المرحلة كان لإعادة النظر في كل ذلك وأكثر.

وقد دعت هذه المراجعات إلى تقبل متغيرات وتحولات ذاتية وموضوعية، عند العديد من الحركات الإسلامية، ومسار هذه المتغيرات في كثير منها كان يتباين والتوجهات السابقة، وقد تعززت أكثر مع ما حصل في العالم من انفراج دولي، وتحولات ديمقراطية في دول أوربية وإسلامية وعربية، وتعاظم هذه الموجة عالميا [14]. هذا وإن صدقت الملاحظة التي أبداها الدكتور أحمد زكي وهي: (أن النصف

الثاني من حقبة الثمانينات شهد تطورا ملحوظا في الدراسات والأبحاث النقدية للعمل الإسلامي، بعد أن كانت غائبة أو نادرة، جدا بحيث إن الناظر في السوق الفكرية الإسلامية يرى الاهتمامات متباينة، ولكنها تصب في النهاية في مديح العمل الإسلامي، وليس نقده وترشيده)[15]، فإن باستطاعتنا استثناء قلة من المفكرين الإسلاميين الذين خرجوا عن دائرة المديح الدائم والإعجاب الزائف.

وكانت جل كتاباتهم تكتسي روحا نقدية، وتلقي ظلالا على جوانب تكاد تكون مخفية ومجهولة في السابق، ومن جهة أخرى فإن هذه الدراسات ساهمت في تعميق وتأصيل وتنضيج الوعي بمفهوم "النقد والنقد الذاتي" ومكتسباته الحيوية حاضرا ومستقبلا، ذاتيا وموضوعيا، فكريا وسياسيا، مما شجّع على تكاثر هذه الأبحاث ومن دون أن تكون موضع شك أو ريب، ونستطيع أن نعد الشيخ الغزالي ـ دون مزايدة أو مبالغة ـ في مقدمة هؤلاء، ولعل الدارس لفكره في هذا الشأن خصوصا باستطاعته أن يلاحظ أمرين مهمين:

ـ أولهما: أن الروح النقدية البنّاءة لازمته منذ كتاباته الأولى، فلم يكن الشأن معه كجملة من كتاب ومفكري العمل الإسلامي، الذين تشددوا في الخطاب ابتداء، وكانوا يشعرون بنوع من الأنا المتضخم، والإعجاب بكل ما يبرز من تحت أيديهم ذاتيا وموضوعيا، فكريا وسياسيا، وقد يتسم البعض منهم بالعصاوة على النقد، وعدم الاعتراف بالأخطاء التي تقع فيها حركته أو حزبه أو مؤسسته.. الخ.

ـ ثانيهما: أن كثيرا من الأعلام والمفكرين الإسلاميين، قد تبنى كتاباتهم وأفكارهم طوائف من الشباب المتحمس، وأساءوا فهمها حينا، ولوّوا أعناق نصوصها أحيانا، لكي يبرروا بها أعمالهم المصنفة تحت خانة "العنف أو التشدد أو التطرف"، وذلك كالجماعات التي تبنت فكر (سيد قطب، وكتابات أبي الأعلى المودودي وسعيد حوى.. الخ. وما سلم من هذا الأمر إلا الغزالي وثلة من المفكرين، للطبيعة الفكرية المتميزة التي لا تسمح بتأويل يسند الفكر المتطرف إن في مقدماته ونتائجه أو في وسائله وغاياته.

وعندما نذكر هذا الأمر فطبيعي أن أولئك الأعلام لا يتحمّلون وزر هؤلاء المتشددين، فهناك ظروف قد احتفّت بالقوم جعلت فكرهم يصدر وعليه مسحة من الشدة الرافضة للواقع الجاهلي المشين، لذا اكتسى هذا الفكر مسحة من القسوة أثناء معالجة هذا الواقع المتردي.

إضافة إلى أن تأويلا باطلا تهجم به المتنطعون على كلام هؤلاء الأعلام يوضع في غير موضعه. لتبرير ما يقومون به من تشدد وعوج. ونحن نعلم أنه حتى كلام الله عز وجل وحديث رسوله لم يسلما من التأويل الفاسد والانتحال الباطل فكيف بكلام غيرهما من البشر.

ويجدر بنا أن ننبه أخيرا أنه ضمن هذا المقام وفي إطار الثقافة العربية الإسلامية، فإننا نجد أن الخطابات التي تتحقق فيها هذه المعايير التدليلية، وتتمثل بها تمثلا جيدا على تفاوتها هي خطابات الفلاسفة، وأبرز المتكلمين والفقهاء، ولعل أحسن مثال نختم به في الناحية التدليلية ما ذكره الغزالي في مقال له بعنوان: "في أطوار الدعوات"، يظهر فيه النفس الفلسفي والفكري العالي، تحدث الشيخ فيه عن المبادئ المنتشرة يحتشد حولها معتنقوها، والمذاهب الحاكمة تمسك بالسلطة في أيديها، وتنفذ بالقوة ما تريد، وكيف أنها تبدأ فكرة، ثم ترتقي إلى عقيدة، ثم تستحيل إلى نظام، ثم يبين الغزالي بعد هذا كيف يستقبل الإنسان العرض الذي يدعوه إلى اعتناق منهاج ما (.. فإن أول ما يفعله أو ما يجب أن يفعله هو أن يستقبل هذا العرض بقلبه، فإما قبله وإما رفضه وهذا ما طلبه القرآن الكريم من المشركين: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾[16].

والتفكير المطلوب هو تفكير الدارس المحص، الذي يقلب ما أمامه على وجوهه الممكنة، ليكشف الحق من الباطل وليميز الخبيث من الطيب. ومرحلة التفكير هذه تعتمد على التأمل طال أو قصر، وعلى افتراض الصدق والكذب - ولما كانت النفس خالية قبلا من الحكم على ما ترى - فإن تشككها[17] فيه حتى تستبينه أمر طبيعي.)[18].

فالدارس سيرى أن الغزالي قد قدّم بمراجعاته النقدية للتراث الإسلامي، وللأفكار السائدة، معالم واضحة لمشروع فكري متكامل[19]، وفق منهجية شاملة، وقد تلمح امتزاجا في طروحاته الفكرية بين عناصر سياسية واجتماعية وأخلاقية وقلما يخلص موضوع من أفكاره لعنصر مستقل، ذلك لأن عوامل التغيير هي عوامل مؤثرة في عوامل أخرى، ومتأثرة بها في الوقت ذاته، ويندر إن لم يستحل وجود العامل المستقل.

2. **الناحية التبليغية:** وأما فيما يخص الناحية التبليغية فإنك واجد أن أي خطاب يتمتع بمكانة جيدة لا بد أن يراعي أمورا منها: سلامة التعبير والتوصيل، بما

يجعل متلقيه متمثلا له واعيا به وبمقاصده الأمر الذي يوجب مراعاة قدرات المخاطب، وحدود فهمه للغة وأسرارها، وقدر منزلته، والطبيعة التي هو عليها والظروف التي يمر بها، فضلا عن التنبه لمراعاة نوع الوسيلة التي يتبنى عبرها معتقداته، والكافية في حقه وغير ذلك من مسائل[20].

وهذا يقتضي أن يتمتع صاحب الخطاب بثروة طائلة من علم النفس، وفن التربية وقواعد الاجتماع، وأن يكون ذا بصر نافذ بطبائع الجماهير، وقيم الأفراد، وميزان المواهب.

وهنا وجب التنبيه إلى نقطة مهمة قد لا تؤخذ بعين الاعتبار في مثل هذه الدراسات وهي: (إلهام الله للداعية ـ صاحب الخطاب ـ أن يتخير موضوعه المناسب، وأن يصوغه في الأسلوب الذي يلقى قبولا في أفئدة السامعين، حتى يترك أثره المنشود في نفوسهم وأفكارهم.

إن القذيفة قد تنطلق كاملة العناصر، تامة القوة، ولكنها تقع بعيدة عن مرماها فتذهب هدرا.

وما أكثر الخطباء الذين يرسلون من أفواههم حكما بالغة، تنطلق هنا وهناك كما ينطلق الرصاص الطائش، لا يصيب هدفا ولا يدرك غرضا)[21]، وإلهام الله ـ في الحقيقة ـ هو الوسيلة التي تعتبر طليعة غيرها، ولا يؤتي الخطاب ثماره كاملة إذا لم يتوفر فيه.

أما سلامة التعبير والوعاء اللغوي الأنيق الذي صاغ فيه الغزالي أفكاره ومعانيه فهو القمة السامقة التي كتب بها داعية ومفكر إسلامي في عصرنا الحاضر إذ أننا سنجد أن يراعه قد دبج مقالات وكلمات حوت من النثر الجيد صورته، ومن الشعر الساحر روحه ونفسه، ولطالما كان يذكّر ـ رحمه الله ـ بوجوب توفر البيان والنفس الشاعرة، لمن يشتغل بخدمة الدين والدعوة إلى كتابه المبين، فلا يخدم هذا الدين إلا صاحب نفس شاعرة، ويتعجب ممن فقد هذه الميزة وتجرأ فاقتحم ميدان الدعوة فيقول: (وأنّى لرجل محروم من حاسة البلاغة أن يخدم دينا كتابه معجزة بيانية، ورسوله إمام للحكمة وفصل الخطاب)[22].

ويدرك أناقة التعبير وفصاحته كل من قرأ للغزالي كاتبا، أو سمعه خطيبا ومحاضرا.

يقول القرضاوي: (من قرأ للشيخ الغزالي أيقن أنه أديب عظيم متميز له مذاقه الخاص وأسلوبه الأصيل، لا يقلد أحدا، ولا ينتمي إلى مدرسة أدبية معينة، وهو لا يحب أن ينتمي في الفكر أو الأدب إلا إلى مدرسة محمد بن عبد الله، ولو قدر له أن يتفرغ إلى الأدب لكان من أعظم الأدباء البارزين في العالم العربي، ولسبق اسمه كثيرا من الأسماء المعروفة)[23]

هذا ما يمكن إجماله من الناحية اللغوية السامية التي تميز بها الغزالي فنشر من خلالها أفكاره وأصدر من تيار أسلاكها أنواره.

(وأما من ناحية التوصيل: فتجدر الإشارة إلى أن هذه الصفة التبليغية لم تستوف الاستيفاء الشامل عند الكثير من كبار مثقفي العالم الإسلامي وكتابه على الوجه الذي تقتضيه سياسة العلم أو ما سماه الدكتور طه عبد الرحمان بـ" التبليغ التداولي)[24].

ولا يعود سبب القصور هذا إلى الخلل في فهم اللغة وأسرارها، قدر ما يعود السبب إلى طبيعة المبلغ نفسه - الطبيعة الخلقية والنفسية - التي تنزع إلي توجيه الخطاب وآثار المزاج المنحرف بادية عليه وهم الذين عناهم الغزالي بقوله: (في تطوافي بالعالم الإسلامي رأيت أناسا يتحدثون عن الإسلام حديثا تأباه الفطرة ويمجه العقل)[25].

وأحيانا يكون السبب هو الطبيعة المتعلقة بصياغة الخطاب وفق قواعد برهانية وأسس منطقية، هي غاية في الصرامة، بحيث لا يستقل يدركها إلا المحققون، وقد نجا الخطاب عند الغزالي من هذه التبعات والنقائص جميعا، وأمكنه أن يعالج أدق المسائل وأعوصها مصوغة في الأسلوب الذي يتمكن الجميع من فهمه، بل ويلقى هوى في أفئدتهم حتى يترك أثره المنشود في النفوس والأفكار.

وسل الألوف المؤلفة التي التقت به.. أو التي أشرف عليها الرجل في مداره العتيد، وسل من قرأوا له، أو سمعوا أحاديثه وخطبه، ما من أحد منهم إلا وفي حياته ومشاعره وأفكاره أثر من توجيهات الشيخ الغزالي، أثر يعتز به ويغالي بقيمته ويعتبره أثمن ما أحرز في دنياه. فالسبب الرئيس كما يظهر هو ما كان الشيخ يتميز به من صدق في طروحاته الفكرية، والتي كان منفعلا بها أكثر من مستمعيه، إن (هذا الذي نذكره تقرره بحوث الاتصال التي تؤكد أن هناك علاقة طردية بين مصداقية

المرسل، وقدرته على الإقناع بالرسالة التي يحملها أو يبثها، حيث تزداد درجة اقتناع المتلقي، كلما كان المرسل يتمتع بمصداقية عالية)[26].

وقد لازمت الغزالي صفة - المصداقية - طوال حياته، وتأكدت من خلال تجربته، فالصدق كان سمة أساسية في تكوينه الشخصي، بل تشكل إلى جانب الغيرة على الإسلام والوقوف إلى جانب الحق مفتاح شخصيته، ومواقفه عبر تجربته الطويلة تؤكد ذلك " موقفه أثناء المؤتمر الوطني للقوى الشعبية عام 1962، وموقفه حين صدر قانون الأحوال الشخصية في منتصف السبعينات متضمنا بنودا اعتبرها علماء الدين مخالفة للشريعة "، وقد ندّد بهذا القانون أمام وزير الأوقاف الدكتور عبد المنعم بري، وفي خطبة الجمعة، وترتب على هذا الموقف أن منع الغزالي من الخطابة، وتم نقله من جامع عمرو بن العاص إلى جامع صلاح الدين بالقاهرة.

إلى جانب ذلك هناك العديد من المواقف ناصعة البياض التي أسهمت في تأكيد المصداقية التي تحلّى بها الغزالي، وكانت على رأس نجاح تجربته كداعية ومجدّد ومفكر أصيل، واستطاع بهذا الصدق أن يلقى خطابه قبولا منقطع النظير على امتداد أمته العربية والإسلامية، (ولا أدل على هذا التأثير والنجاح ما كان من خطبه التي كانت مذياعا خطيرا يبشر به مستمعيه بآرائه الجريئة، فأعاد بذلك للخطبة الدينية يوم الجمعة اعتبارها المفقود، وأخذت الجموع تهرع إلى المسجد قبل الميعاد، لتجد المكان المطمئن فإذا ضاقت رحاب المسجد تكتّل الناس في الطرقات من حوله، وقد بسطوا السجاد ليؤدوا الفريضة مستمعين إلى النقد الجريء الحر بلسان عربي صادق، لا يعرف الجبن والخداع، وحين كان الأستاذ خطيبا للجامع الأزهر حقبة من الدهر، أصبحت خطبه النقدية حديث الناس جميعا، وسجلتها الأشرطة لتتناقل في الربوع النائية فيعيدها خطباء المساجد في الأقاليم مرة ثانية.

وقد اجتمع أحد وزراء الداخلية مع نفر من الصحفيين ليقول لهم: إنهم فقدوا التأثير الشعبي لأنهم يكتبون في مناصرة الحكومة ولا يستمع إليهم أحد، ومحمد الغزالي يلقي خطبه في مسجد "مصطفى محمود" يوم العيد فيرددها الخطباء في عشرات الآلاف من المساجد في القرى والمدن ولا يستطيع أحد أن يمنع خطيب الجمعة إذا استند إلى القرآن والحديث ونقل كلام الغزالي في قدرته على الإقناع والإبداع!!)[27].

ومن الأمثلة الجديرة بالذكر في هذا المقام قوله يتحدث عن المظالم في المجتمع: (إن للمظالم عمرا معيّنا تقف عنده وتبيد، وقد ترخي الأقدار العنان لبعض الناس

فيستبدون ويفسدون وليس يحدث هذا عن إهمال معيب، بل إنه يحدث عن إهمال مقصود يرتبط سره بسر الحياة نفسها، وسر الحياة قائم على الاختبار والتمحيص، وتكليف البشر أن ينشدوا الكمال في أعمالهم وأنظمتهم، وأن يدفعوا ثمرة ذلك من دمائهم وجهودهم. فإذا تظالمت أمة واضطربت أمورها ولم يرجع ظالمها عن غيه، ولم ينتصف مظلومها لنفسه، تداخلت الأقدار في مصير هذه الأمة بما يؤدب ظالمها ومظلومها على سواء، وللقدر في ذلك أساليب شتى أما إذا نهض المظلوم وكافح وهتف بربه: " إني مغلوب فانتصر" فان ميزان الحياة يعود إلى الاستقامة والاعتدال، ويتخلص العالم مما عراه من توقف وارتباك)[28].

3 ـ **الناحية التوجيهية**: وأما في ما يخص الناحية التوجيهية فيهمنا هنا التذكير بمسائل عدة تتعلق بالناحية العلمية التي يقصد الخطاب إلى استنهاض الهمة، بالإضافة إلى قوة الخطاب التدليلية وقوته التبليغية عوامل أخرى، فمن ذلك الآثار التي تتركها الأدوار التي تلعبها العلاقات التنازعية بين الخطابات المتزاحمة فيما بينها تاريخيا في كل حقبة على ما يبدو، وتتنازع التسلط خطابات عديدة نجملها في: الخطابات البائدة، والخطابات السائدة، والخطابات الوافدة[29].

والخطاب السائد الذي يملك سلطة واسعة في حنايا الأمة هو الإسلام بداهة، ونعلم أنه يحمل في جنباته من قوة الألفة والاستمرار والتقليد ـ والناس يميلون إلى ما ألفوه من معتقدات ـ الشيء الكثير [30]،وهذا الذي نذكره يكون في الحالات العادية التي يكون الإسلام محكّما بمرجعياته المعروفة والمتفق عليها، والبيئة التي وجد فيها الغزالي، هي بيئة قد رمى فيها الغرب بخلافة الإسلام في البحر، وهي بيئة اكتسح فيها الاستعمار العالمي بتفوقه المدني والعسكري كل شبر من أرض الإسلام، وحاول أن يغيّر معالمها جملة وتفصيلا لمصالحه الخاصة،

وهي بالإضافة إلى ذلك بيئة انتشرت فيها الأدواء في الكيان الإسلامي نفسه، نتيجة فساد عام في أحواله المادية والأدبية، العلمية والعملية، الفردية والاجتماعية، التربوية والسياسية[31].

ومسألة استنهاض الأمة للاشتغال بما يمليه الخطاب الوافد غالبا ما يترتب عليه أعباء كثيرة، خاصة في بيئة كالتي وصفناها من قبل، وترتب مثل هذه الأعباء مرجعه الأساس لما للخطاب السائد من علاقة بالكيان السياسي والاجتماعي الذي يشتهر فيه الخطاب الوافد.

وذلك يقتضينا أن نولي هذا الكيان ودوره الأهمية التي يلعبانها في تشكل الخطاب من الناحية التوجيهية، إذ أن التغيير يبقى مطلبا في الحدود الدنيا بالنسبة لأنظمة الحكم المستقرة نسبيا، وفي هذا تتحدد علاقة المثقف بالسلطة، وتتحدد بعض ملامح الخطاب التوجيهية.

ونقصد بالمثقف ذاك الذي يتفاعل مع مجتمعه وشعبه، وسيضطرنا هذا إلى الحديث عن المثقف والسلطة، لفهم طبيعة العلاقة التي تربط بينهما في عالمنا العربي والإسلامي.

إنه ومن خلال تأمل بسيط سيتجلى لنا أنها علاقة تصادمية في العالم الثالث - والعالم الإسلامي جزء من هذه الكوكبة - أو كما يذكر الأستاذ أحمد بهاء الدين: (علاقة يحكمها الشك وعدم الثقة على الأقل، وأحيانا يحكمها التناقض والعداء.

وفي تقديري أن هذه العلاقة القلقة تنطوي على خسارة كبيرة لكل بلد.. في حين أننا نجدها علاقة تكاملية في الدول المتطورة، يحكمها التعاون والثقة، حتى وإن كانت للمثقف آراء تخالف رأي وفلسفة السلطة.

وكان البعض يندهش أحيانا من أن الرئيس الأمريكي يستعين بمستشارين لهم آراء تخالف رأيه وفلسفة حزبه، ولكن هذا بالضبط هو المقصود أحيانا. فحين يأتي الحاكم بمستشارين ومفكرين من نفس مدرسته وتفكيره، فكأنه يضع حوله مرايا لا يرى فيها إلا نفسه، في حين أن المفروض هو أن توجد العناصر الأخرى التي تثير الجدل والنقاش، ويجد من خلالها فرصة التعرف على شتى الآراء والتيارات)[32].

لذلك فـ (علاقة المثقف بالسلطة طالما كانت - وستبقى - ذات تأثير بعيد في تشكل الخطاب لينحو نحوا مواليا أو معارضا، حادا أو رفيقا، أو وسطا بين الأمرين، كذلك فإن للخطابات البائدة دورا تلعبه في زعزعة الخطاب السائد، وتجاذبه نحو اتجاهات أخرى..)[33]، ويتجلى هذا الذي شرحنا جزءا منه تنازع الخطابات وعلاقة المثقف بالسلطة في تأليف الغزالي لبعض كتبه في ظروف عصيبة، نراه قد نحا فيها نحو المعارضة والحدة في الخطاب تجاه بعض من الخطابات السائدة والوافدة على السواء. ففي مقدمة الطبعة السابعة لأول كتاب ألفه الغزالي وهو: "الإسلام والأوضاع الاقتصادية" يذكر: (أنه في سنة 1961 م... وبعد انكشاف الضياع السياسي المقنع بشعارات لا تحمل أدنى رصيد من الشرف والحقيقة. تحت راية ما سمي بالقوانين الاشتراكية ... وكانت شيوعية مغلفة

زاحفة، وظهر أن ما كنا نظنه إصلاحا إنما هو داء جديد، أسوأ خطرا من الداء القديم الذي كنا نحاربه في هذا الكتاب...

وكما دخلنا المعركة في سنة 1947 م ضد الإقطاع والاستبداد، دخلناها سنة1961 م ضد الأخطار الجديدة، وأوذينا في الله ونحمده على ذلك، وأصدرنا في هذه الظروف كتابنا: "معركة المصحف في العالم الإسلامي". وتابعنا المعركة حتى أوصدت في وجوهنا كل أبواب العمل للإسلام من خطابة وتربية وكتابة.)[34].

وهناك كتب ثلاثة ألفها الشيخ برزت فيها مدافعة جلية لهذه الخطابات، فمن ذلك كتابه المزعج " الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين". (وأقول: "المزعج" عن خبرة واعية بأثره البعيد، لأنه أزعج طائفتين متعارضتين كلتاهما تتمسح بالإسلام وهو منها بريء. ـ طائفة الرأسمالية: التي تعلن أن الإسلام يؤكد اكتناز الذهب والفضة والعقار، عملا بمبدإ الحرية في الامتلاك، وهي واهمة مخطئة. ـ وطائفة الشيوعية: التي تتمسح بنصوص قرآنية تفسّرها على غير وجهها. فجاء الكتاب الفذ ليعلن أن الإسلام ذو منهج عادل في تحقيق التكافل الاجتماعي، ولم يبغ إرضاء المذاهب المغرضة...)[35].

والكتاب الثاني هو: "الإسلام في وجه الزحف الأحمر"، فقد ألّفه ليجابه موجة الشيوعية التي اكتسحت بلادا عريضة من بلاد الإسلام، وفرضت أفكارها على العموم، فتصدى الغزالي علانية لأقطاب وسماسرة الدبّ الروسي، ومن تبنّى الشيوعية من أنصار السلطان. وذكر في مقدمة كتابه هذا أنه: (رأى أن يكتب هذه الصحائف بالحقائق العلمية والتاريخية، وأودعتها صرخات قلب غيور على دينه، مشفق على أمته : وأعرف أني بكتاباتها سأتعرض لعداوات مميتة، ولكن بئست الحياة أن نبقى ويفنى الإسلام.)[36].

ويذكر "علاء محمد الغزالي" أن والده في حوار شفهي قال دامعا: (كم نصحني من الزملاء والمحبين أن أصرف النظر عن كتاب "الإسلام في وجه الزحف الأحمر" لأنه سيثير الزوابع الفتاكة عليّ، وخلوت بنفسي أسائلها. هل هذه هي الحياة؟ ماذا سأقول لربي أفلا أخشى منه؟ بئست حياة أدفن فيها في جلدي، ويتنطع الظالمون صائلين بالأقدام علينا. لموت في هذه الحال أشرف وأجل، ولا يفنى الدين أبدا)[37].

ويشهد جملة النقاد والراصدين لحركة الأفكار، وآثارها في المجتمع على أثر الشيخ الغزالي البيّن في استنهاض الأمة بما يمليه خطابه الفعال تجاه تلك الخطابات التي أتينا على ذكرها، مدافعة وردا أو تقويما ونقدا، وأن ما خطه قلمه كان من أقوى الدوافع نحو الاستثارة والتغيير والإصلاح، وأن كتبه تعتبر الطليعة العقلية للزلازل التي هدمت صرح الطاغوت، والتصدي لواردات الفكر الغربي، والغزو الموجه نحو الصميم.

وفي كتابه "الإسلام والاستبداد السياسي" [38] يذكر الأثر الذي تركه هذا الكتاب في الأوساط لما يقول: (كتبت هذه الصحائف من بضع عشرة سنة وكان دويّها بعيد المدى في إقلاق الظلمة، وكانت استجابة القدر لها أسرع مما يتصوره الكثيرون، فدكّت عروش طالما عنت لها من دون الله الوجوه، وزالت مآس كاد الإياس من زوالها يستولي على الأفئدة)[39].

ـ فمؤلفات الغزالي قد كانت من حيث التحفيز وإنهاض همة الملتقي للاقتداء بالخطاب، والاشتغال به زاخرة عامرة، كما أنها قد ركزت على مبدإ هام هو ضرورة ربط الفكر بالعمل، وأن لا تبقى الآراء والأفكار حبيسة عقول سماوية وأبراج عاجية، وهذا عندما يقول ـ مثلا ـ: (أظن أن التربية لن تبلغ تمامها، ولن تستقيم على نهجها إلا إذا خرجت بأصحابها من الصومعة التي يتحنثون فيها، والتقت بهم وجها لوجه مع مشكلات المجتمع، ومفاتن الدنيا)[40].

أو عندما يقول: (..ولا أدري لماذا لا نؤثر العمل الصامت، بدل ذلك الجدل العميق)[41].

ويقول: (الرسالات الكبرى إذا تطلعت إلى الحكم وسلطانه فلكي تضمن تنشئة الجماهير على ما تقر من مبادئ، ومن ثم فالحكم في الإسلام وسيلة لا غاية، إنه وسيلة إلى إقرار الفضائل وإقصاء الرذائل، وتربية النفوس على الحق والخير، والنظر إلى الأفراد والشعوب على ضوء هذه الحقيقة وحدها، وليس يتصور في دعوة إلى الله ورسوله أن تتخلى عن هذا الميزان الحساس في تقديراتها لأصناف الناس).[42]

وإلى هذه الغاية نستطيع فهم سر السلطة والتأثير في هذا الخطاب، ذلك أنه قد استوفى المعايير والصفات الواجبة كاملة، وجاء خطابا ذا فعالية تدليلية تبليغية توجيهية بمعنى الكلمة.

محددات وسمات خطاب الغزالي:

ينتمي الغزالي إلى مدرسة تجديد الفكر الإسلامي الحديثة، ويعتبر أحد أجيالها في هذا العصر.

هذه المدرسة التي بدأت في القرن الماضي على يد جمال الدين الأفغاني وتلاه جيل الإمام محمد عبده. واستمرت من خلال الجهود الفكرية لرشيد رضا عبر مجلة المنار، ثم الجهود الإصلاحية لمصطفى المراغي في الأزهر الشريف، فقد سلكت هذه المدرسة رؤية تجديدية وإصلاحية حمل لواءها هؤلاء الرواد جيلا بعد جيل، فأثمرت التكوين الفكري للشيخ محمد الغزالي والذي مثل الجيل الخامس في هذه المدرسة.

ولا يخالج أيّ باحث منصف شك في كون الغزالي واحدا من أبرز أعلام المدرسة الفكرية التي يطلق عليها "مدرسة الإحياء والتجديد الحديثة للفكر الإسلامي" وخاصّة فصيلها الذي انتقل بقضايا الفكر الإسلامي من إطار "الصفوة" ـ كما كان على عهد محمد عبده ـ إلى إطار "الأمة وجماهيرها" وهي المرحلة التي بدأت بالشيخ حسن البنا. وتعد اجتهادات الغزالي الثمرة الناضجة لجهود المدرسة الإصلاحية التي بدأت بوجه سياسي سافر على يد الأفغاني، ثم اتخذت منهجا تربويا تعليميا تكوينيا متأنيا على يد محمد عبده، ثم عادت على يد رشيد رضا ومدرسة المنار لتشتغل في إطار العلوم الشرعية مع الاهتمام بقضايا العالم الإسلامي السياسية وقد كان لمدرسة المنار فضل تعميق الخطين معا: الخط السياسي الثوري للأفغاني، والخط التربوي التكويني لمحمد عبده، وذلك مع تصحيح أطر التفكير التي أرساها كل من هذين الرائدين[43].

ولأن الشيخ رضا كان أقل "راديكالية"، وأكثر دأبا من سابقيه، فقد أدّت مثابرته في عالم الكتابة والنشر إلى التأسيس الحقيقي، لما يعرف وفق التسمية الفضفاضة غير الدقيقة بالمدرسة السلفية.

وقد أسهمت إشعاعات تلك المدرسة في إنضاج أفكار عدد من أعلام الفكر والعمل السياسي الإسلامي أمثال: عبد الحميد بن باديس، وعبد الكريم الخطابي، وحسن البنا، وهنا يمكن إرجاع الفضل إلى جهود الشيخ رضا في تنقية فكر الشيخين الأفغاني وعبده، وترشيحه عبر منظوره السلفي النقلي، وتقديمه مخلصا من شطحاته وشوائبه، ليكون أساسا لفكر عصر اليقظة الإسلامية، وإلا

فإن أفكار الأفغاني ومحمد عبده في صورتها الأولى، قد أنجبت عددا من التلاميذ ممن لا يمكن وضعهم في سياق فكري سياسي إسلامي، شأن سعد زغلول ولطفي السيد، وكلاهما كان يعتز بتتلمذه على خط محمد عبده، ويظن أنه كان الامتداد الحقيقي لذاك الخط.

بل إن بعضهم كان يستنكر بحنق واضح جهود الشيخ رضا في تصحيحه خط الإمام كما يستكثر عليه أن يكون الوارث الحقيقي لخط المدرسة السلفية بزعم أنه كان مقلدا أكثر منه حاملا للواء التجديد[44].

فالغزالي من أبرز المفكرين الذين ورثوا خط السيد رشيد رضا النابض بالإيقاعات السياسية، وقد استطاع بجدارة أن يعطي ذلك الخط دفعة قوية، استقاء من دراساته الشرعية النظامية، ومن انخراطه في قيادة العمل السياسي التنظيمي في جماعة الإخوان المسلمين التي انتظم في خطها إلى أواسط الخمسينات، ثم تخلى عنها تنظيميا، من دون أن يتباعد عنها فكريا أو سياسيا.

وقد نظلم الشيخ الغزالي إذا لم ننبه إلى تميّزه في الفصيل الذي كان إمامه في مدرسة الجامعة الإسلامية.. فلقد كان متميّزا منذ بدأ مشروعه الفكري سنة 1947م بكتابه الأول "الإسلام والأوضاع الاقتصادية"، ثم إن الرجل قد امتدت به التجربة وامتد به الجهاد بعد استشهاد حسن البنا، أكثر من أربعين عاما.. فواجه ما لم يواجه هذا الفصيل في النصف الأول من القرن العشرين.. ومن ثم فقد أبدع الجديد الذي أضافه إلى رؤية هذا الفصيل[45].

هذه المدرسة وإن اعتمدت الأثر والرأي معا، وسلكت سبيل الموازنة والترجيح بينهما فإنها تميزت عن مدرسة ابن تيمية (بترويجها للعقل، وتقديم دليله، واعتبارها العقل أصلا للنقل، وهي تقدم الكتاب على السنة، وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد، وهي ترفض مبدأ النسخ، وتنكر إنكارا حاسما أن يكون في القرآن نص انتهى أمده، وترى المذهبية فكرا إسلاميا قد ينتفع به، ولكنه غير ملزم، ومن ثم فهي تنكر التقليد المذهبي، وتحترم علم الأئمة، وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية، ولا تلقي بالا إلى مقولات الفرق والمذاهب القديمة والحديثة)[46].

- أهم سمات خطاب الغزالي:

1-**الاجتهاد والتجديد -البناء السياسي أنموذجا-**: ذلك أن بين التجديد والسياسة ارتباطا وثيقا، فإذا كان التجديد في جوهره ليس إلا إصلاحا وتقويما فإن السياسة في معناها ومبناها تعبّر عن القيام بما يصلحه، وقد شغل الجانب السياسي حيّزا كبيرا من اهتمام الغزالي ومشروعه الفكري، وهذا يتسق مع انتمائه إلى مدرسة التجديد والإحياء الحديثة، التي تأسست على يد الأفغاني ومحمد عبده، فكل أجيال هذه المدرسة لم ينفصلوا عن الهم السياسي.

ولا يرتاب راصد لحركة الإسلام ومسار أمته، على رأس القرن الرابع عشر الهجري أن الشيخ أحد أعمدة التجديد الإسلامي الرئيسة في هذا العصر.

وقد عاش الغزالي عمرا مديدا أنفق قسطا وافرا منه في الكتابة، وخلف ما يفوق تعداده الستين كتابا في شتى قضايا الفكر الإسلامي أبرز فيها الأبعاد الاجتماعية والسياسية للإسلام ...

وفي كل إنتاجه كانت سمة الاجتهاد والتجديد حاضرة واضحة سواء في تركيبه للأفكار، أم في أسلوبه في الطرح والحوار، أم في الوعاء اللغوي الأنيق الذي استخدمه لبث تلك الأفكار.

أما فيما يخص تركيب وتحليل الأفكار فإن الدارس ليرى وكأنه قد استبطن أساس قاعدة التحليل الديكارتية، التي تحلل الفكرة إلى عناصرها الأولية البسيطة - مع عمق واضح في المعنى - ويتضح ذلك من خلال دعوته إلى فهم الدين على طريقة السلف قبل قيام الفرق الإسلامية، التي ذهبت بها المذاهب، ونأى بها التطرف عن روح الدين، ونادى بالعودة إلى بساطة الدين، وإلى عهد النبي حيث غمر الإيمان العقول والقلوب، وتزودت منه بالنور الفطري، وقادها إلى العمل المثمر الجاد.

ومما يسترعي الانتباه أن هذا التركيب المنطقي والتحليل الفكري الرصين لكثير من آراء وأفكاره القديمة لم يتغير، رغم أن زمنا مديدا غبر على مضيّها.

يقول الغزالي في كتابه: "ظلام من الغرب": (..ومن الخير تذكير قرائنا أن هذا الكتاب طبع لأول مرة من نيّف وعشرين عاما، ومع مرور هذه السنين، فإن أحكامنا لم تتغيّر، ونظراتنا إلى الأمور لم تزدها الأيام إلا صدقا..)[47].

ونرى هذا التحليل والتركيب جليا حين عرض الغزالي ـ وهو يرد دعوى الأستاذ خالد محمد خالد ـ للمنهج الذي بنى عليه حججه في سلب حق الإسلام في الحكم، فقال الغزالي بأنه منهج مقلوب إذ: (..نحن نعلم أن الناس يعيّرون بتركهم للدين وخروجهم على أحكامه... بيد أن الشيخ خالدا يُعيّر الإسلام بخروج البعض عليه، ويريد تحميله تبعة أعمالهم. فإذا ضل الحجاج فالعلة في نظره أن التشريع غامض، لا أن الحجّاج حاكم ساقط، وتطّرد الأمثلة في استدلالاته على هذا النحو المتداعي، حتى يخرج منها في النهاية بأن الدين ليس أهلا لأن يحكم، ولو كان عبث الحكام بنصوص الحكم سببا لإهدار العمل بها، فلم لا يكون عبث العامة بسائر الأحكام في العقائد والآداب، سببا لإهدارها كذلك!) [48].

فالمنطق مقلوب بشكل مثير، فقد كان على خالد محمد خالد ـ كما ذكر الغزالي ـ أن يميّز بين المثال والواقع التاريخي، وأن يحاكم الوقائع التاريخية الشاذة في ضوء المثال الإسلامي العام، لا أن يحمّل الدين آصار تلك الوقائع، أو أن يبني أحكامه الشاملة التي قضت بحرمان الدين من سلطته، على إساءة استخدام بعض الحكام لها.

ثم إن عدم شرح وتحليل الناحيتين الأخريين من جانب التجديد وأعني: ـ الأسلوب المنهج للطرح والحوار.

ـ والوعاء اللغوي الذي استعمله لبث تلك الأفكار، لأنه قد أتينا على ذكر أكثرها أثناء حديثنا عن خصائص خطاب الغزالي.

2-**الصورة الكلية والرؤية الشاملة (المدخل الكلي في السياسة)**: (كان انتماء الغزالي الفكري للجذور العريقة "المدرسة الإصلاحية، ومدرسة الإخوان المسلمين" هو ما أعطى فكره صورته الكلية لذا نجد أن فكره هذا قد اتسم بالنظرة الكلية الشاملة، وربط الجزئيات بالكليات، ورد المسائل المتفرعة إلى أصولها التي تجمعها. ويتضح الاتجاه المنطقي العقلي في تفكيره من خلال مناقشته لكثير من الأفكار والدعاوى في ميدان العلم والسياسة. ليستشف الدارس من خلالها دقة البحث، ولطف الفهم، وحسن الاستدلال، ومراعاة النظام المنطقي.

ومن بين الكتب العديدة التي ألفها يمكن اعتبار عشرة منها سياسية خالصة، أما بقية أفكار الشيخ السياسية فقد توزعت على مختلف كتاباته، وقل أن تجد له

كتابا لا يتعرض لموضوع السياسة، وهكذا فبغير قراءة واسعة في تراثه يتعذر على القارئ أن يجمع خيوط تلك الأفكار، وأن يضعها في نسق منتظم، إذ بقدر ما أكثر من الإنتاج الفكري، بقدر ما كانت أفكاره السياسية تتناثر وتتوزع وتتداخل مع موضوعات أخرى، محققة بذلك نوعا رائعا من التلاحم ما بين الشأن السياسي والاقتصادي والثقافي والتربوي والروحي، وقد كان طبيعيا أن تأتي أفكاره بهذه الصورة الكلية، إذ إنها منبثقة عن إطار عقائدي ومعرفي أشمل هو الإطار الإسلامي، وقلما يفصل الغزالي في خطابه فصلا حاسما ما بين النظامين الاجتماعي والسياسي، فربما يركز على الجانب الاجتماعي كما هو الحال في كتابي الجانب العاطفي من الإسلامي وجدد حياتك، لكنه لا يخلي مثل تلك الكتب من إشارات إلى أثر الدولة، أو العامل السياسي في حياة الناس.

وأما عندما يتناول الجانب السياسي الخالص، فإنه يصله بخيوط قوية بمفاهيم الإسلام الاجتماعية، ولذلك فإنك تعثر في خضم تحليلاته السياسية على تصورات أخلاقية خالصة، وقد يتعذر على المرء أن يعثر على كلمة "عفاف" مثلا في كتاب من كتب علم السياسية، ولكنك واجد مثل ذلك وبكثرة في كتب الغزالي وأفكاره السياسية، وواجد ربطا قويا لمفاهيم الدين المركزية مثل "الورع"و"التقوى"و"الجزاء الأخروي" بتفاصيل ممارسات العمل السياسي.)[49].

فغني عن البيان إذا أن خطاب الغزالي في الفكر السياسي - حتى وهو يعالج قضايا سياسية - لم ينفصل عن الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، فضلا عن الجوانب الإيمانية والروحية والأخلاقية...

وهذا المنهج شيء طبيعي، إذ أنه يتكلم عن نظام سياسي موصول بدين صادر عن الوحي الكريم، وليس حديثه مجرد طرح سياسي قائم بذاته، مستغن عن مناخه وأرضيته وقواعد انطلاقه.. وهذا المنهج ينسحب على شتى المعالجات التي تتصل بشؤون القلب والضمير في صعيد واحد. وفي ضوء هذا المنهج العام، يتضح أن ما يذكره الدكتور"محمد وقيع الله"، يحتاج إلى تعليق وذلك حين يقول: (لقد كان الشيخ الغزالي يحاول دائما رفع المعالجة السياسية إلى أفق الوضاءة الروحية، وهذا هو المنهج الأسدّ لأن النظام السياسي الإسلامي لا يؤتي ثماره ناضجة إلا في هذا الأفق، وكما لاحظ مالك ابن نبي بحق، فإن الحضارات الإنسانية كافة ما

كانت سوى حلقات متشابهة في أطوار نموها، تبدأ الحلقة الأولى بظهور الروح الدينية، ثم تتغلب جاذبية الأرض والمادة عليها فتفنى قوة الروح والعقل)[50].

وهذه ناحية غاية في الأهمية ينبغي أن يتفطن إليها المجتهدون في علم السياسة الإسلامي، في نهضته المرتجاة، فلا يحدوا من مداه الرحب، ولا يجردوه من المضامين الروحية والأخلاقية.

وقد ظهرت بالفعل إلى عالم الوجود كتب سياسية إسلامية اختار أصحابها - بتعمد - أن يتخذوا منحى دستوريا جافا مجردا من روح الدين، وخاليا ولو من إشارات عابرة إلى جوانب الروح، وضمانات الإسلام الاجتماعية والتربوية الكثيرة، التي بدونها لا يمكن أن يستقيم نظام الحكم الإسلامي[51]، وهي كتابات نرجو أن لا تكون نموذجا يُحتذى في الاجتهاد السياسي الإسلامي المنشود، إذ أنها تجزئ الإسلام بالطريقة نفسها التي جزأت بها العلوم السلوكية الحديثة مفهوم الإنسان، وعملت على معالجة مشكلاته من منظورات جزئية اقتصرت على دلالات علم واحد، كعلم الاقتصاد أو علم النفس أو الأنثروبولوجيا أو الاجتماع.. إلخ، غير واضعة في الحسبان ضرورة النظر إلى الكينونة الإنسانية في أبعادها كافة.)[52].

(ونحن نقول: إن الغزالي كان ينطلق من المنهج الإسلامي الصحيح، وهو بالتالي لم يرتفع بالمعالجة السياسية إلى أفق الوضاءة الروحية إذ أن المعالجة السياسية الإسلامية لا تتم إلا في مناخ هذه الوضاءة، وبالتشابك معها، والامتزاج بها، وفق نسيج إسلامي متوازن محكم، تعانق فيه الشريعة الروح والضمير! أما المجتهدون في علم السياسة الإسلامي ممّن أظهروا في عالم الفكر كتبا سياسية إسلامية ذات منحى دستوري جاف مجرد من روح الدين، ومن ضمانات الإسلام الاجتماعية والتربوية...فهؤلاء المجتهدون لا يمثلون – أصلا – المنهج الإسلامي، وليسو أكثر من أكاديميين محترفين قادرين على التجزئة والتفريع، لكنهم عاجزون عن تمثيل تكاملية المنهج، سواء في عالم الإسلام المحكم، أم في عالم الكينونة الإسلامية التي جاء الإسلام ليصبغها بصبغته، ويتفاعل معها تفاعل الروح الشفاف والدم القاني مع الجسد الإنساني الطهور، وليس الأمر مجرد تجزئة للإسلام، إذ ربما كان ذلك مقبولا في النطاق البحثي، لكن هؤلاء المجتهدين ليسوا من هذا في شيء، فمعظمهم أقل شأنا من أن يصلوا إلى هذا الأفق الواعي بفلسفة الإسلام وطبيعته العضوية المحكمة!!

وهذا الذي نقوله لعله يعالج الأسلوب نفسه الذي استطرد إليه الباحث حين ذكر أن الشيخ الغزالي وهو يصوغ فكره السياسي، كان يعمل من ناحية أخرى في سبيل جذب السياسة إلى إطار الدين، فالحق أن كل ذلك مجذوب إلى بعضه أصلا، وكله مشدود إلى بعضه في مصنع النسيج الإلهي بالصبغة الإلهية التي تتقاطع فيها وتتشابك الخيوط كلها. فما دامت السياسة "سياسة إسلامية" فلا بد أن تكون كذلك موصولة بكل جوانب الصياغة الإسلامية للحياة، وبطبيعة عمل هذا الدين فيها) [53].

3- **ربط الخطاب بالعمل**: الرؤية المنهجية للغزالي تذهب إلى ضرورة الربط في الخطاب بين العلم والسياسة، بين الثقافة والسلطة، حتى يكتسب القرار قوّته ونجاحه، وتحتفظ الأمة بمتانة نسيجها وتماسكها.

ولعل أهم ما يميّز فكرة الترابط والقرن بين العلم والعمل في فكره، هو حرصه على إبراز الكليات وعدم الانشغال بالتفاصيل والجزئيات، والنظر إلى المستقبل، والعمل ما وسعه الجهد باتجاه الأهداف الإستراتيجية للأمة الإسلامية. فنجده يقول: (وقد اجتهدت إذا تحدثت في أمر ما، أن أستوفي عناصره العلمية، وأن أربطه بالمناسبات العابرة على نحو معقول، وأن أجرّد كلامي من أي زلفى للحاكمين، وأن أضمّنه تصريحا أو تلميحا ما أنصف به ديني وأسترضي به ربي... وهي خطة ضاق بها أصحاب السلطة، ولكنهم لم يتحاملوا عليها!)[54].

وكان يمتاز – رحمه الله – في روحه ومن ثم بما تبثه هذه الروح في خطابه بحرارة العاطفة التي تصل الفكر بالعمل في ظلال إيمان عميق بما يعلم، وبقيمة العمل الصالح مهما قل، والنظر إلى العلم ليس كمهنة ولكن كرسالة.

ليس المهم عند الغزالي أن تتزاحم أفكارنا، وأن تكثر حصيلتها في الذهن، وأن يحلق تفكيرنا في سماء التجريد، وأن نؤمن بنزعات إطلاقية، وأن نتشدق بجدل لفظي عقيم، ولكن المهم هو أن نوائم بين أفكارنا وعملنا وتهديه، وكأنه بلسان الحال يردد قول الإمام مالك: " أعوذ بالله من قول ليس تحته عمل".

ولقد عبّر عن نزعته العملية وكرهه للجدل العقيم الذي لا طائل تحته في جل ما كتب، وهاهو ذا يحذر من (..ازدياد قتام المأساة الهائلة - مأساة تخلفنا الفقهي والعلمي في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية - وذلك بوجود فقهاء - أعني

ناسا منسوبين إلى الفقه - يذرفون الدمع لأن التصوير الشمسي انتشر، أو لأن التلفزيون دخل كل بيت، وتقاسموا بالله لا يظهرون أبدا في هذا الجهاز!

فإذا حدّثت هؤلاء أو حدّثت من هو أنظف فكرا عن الدساتير التي تقيّد الحاكمين، والقوانين التي تطمئن العاملين، نظر إليك بغباوة هائلة، وأشعرك أنك تتحدث معه في غير الإسلام...

وقد تجاوزنا هذا الهراء كله لنضع أمتنا على طريق النهوض الصحيح، واحتاج ذلك بداهة إلى دعم مؤسسات الشورى ونزع أنياب الاستبداد، وفرض رقابة صارمة على تداول المال بين الأيدي.

ولم يكن بد من الانتفاع من تجارب غيرنا لأن فقهنا المجمد من قرون لا يلبي الحاجات الطارئة..) [55].

ويؤكد الغزالي سيره الدائم وفق هذه الخطة وذلك حين يقول: (وسنظل ماضين على هذا السنن الرشيد في إنصاف الدين من مستغليه، وتخليص الدنيا من المستحوذين عليها بالباطل، وتكوين جيل من الأحرار الذين يؤمنون بالله وحده، ويكفرون بالطواغيت.)[56].

والغزالي لم ينأ بنفسه عن سبيل هؤلاء الأعلام، إذ نراه قد اتخذ لنفسه طريقا مميّزة تمثلت في خدمة الإسلام بأساليب العصر الجديد، في الوقت الذي كان يظن فيه فريق من الناس أن هذه الخدمة ممكنة بالكهانة الجامدة، والروح الباردة، والقراءة الخالية من الفقه، و...الأفكار التي سادت عهد المماليك.

وقد قامت ضد الغزالي وممن كان يحمل بين جنبتيه هذه الفكرة حملة افتراءات لئيمة، تتخذ من عملهم للخير دليلا عليهم، ومثارا للنيل منهم... فنراه يقول في أحد أقدم مؤلفاته:

(إذا ما دعونا إلى إطعام المحروم، وتشغيل العاطل قالوا: شيوعيون،وإذا بذلنا من كسبنا الحر قالوا: متصلون بكذا وكذا، وإذا ناقشنا بالحسنى قالوا: خطرون على الأمن، والغريب أن ما دعونا إليه منذ سنين، أصبح اليوم منهاجا تنادي به أحزاب وهيئات، فعيبنا أننا سبقنا الزمن، وأننا بذلنا حيث يبخل غيرنا ...وتقدمنا عندما نكص كثيرون...)[57].

لقد سعى الغزالي جهده في سبيل إخضاع سياسة الحكم والمال لتعاليم الدين خضوعا لا فكاك منه، ونعى على المسلمين فهمهم للدين على أنه مجرد تراث عقلي نظري بحت، ومن ثم للخطاب الإسلامي أنه لا علاقة له بتغيير واقع الحياة المأساوي... وساق من تاريخنا الرشيد نبذا يسيرة من سيرة العمرين، ولمعا مشرقة من تاريخ الرجلين اللذين فهما الإسلام خير فهم، وطبّقاه في حكمهما خير تطبيق، ليرى المصلحون في هذه الأيام أمثلة حية لطرائق الاشتراكية الإسلامية السديدة في تنظيم المجتمع، على أساس بيّن من محاربة الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي والاقتصادي (لكن رجالات الشرق العظام دفنوا في تاريخه المضطرب كما يدفن الذهب في التراب، فإذا ما أحيينا سيرتهم أبرزنا أعمالهم في المؤلفات، ولم نقتد بها في فك إسار الشعوب المعذبة وإنصاف شتى الطبقات، وهل كانت عظمة عمر إلا في أنه صاحب فلسفة عملية، أخذ يحلم بها أمثال روسو وميرابو؟ فكان الرجل الرباني المنفذ لها، وكان هؤلاء أصداء هزيلة للثورة المضطربة الساعية على غير هدى إلى الحرية والإنصاف والعدالة، والتي كان خيرها وشرها سواء) [58].

ويعدّد الغزالي أسباب وعوامل المشكلة الفكرية وأزمتها الحاضرة إلى بدايتها المبكرة عقب الخلافة الراشدة، عندما أخذ العلم ينفصل عن الحكم، فقد ترتب على ذلك تجمد الفقه السياسي والدستوري، وتجمد فقه العلاقات الاقتصادية والمالية، ثم تجمد فقه العلاقات الدولية، وما تلاه من إغفال للفروع الأخرى من فقه الحياة: كفقه العمل والعمال وسواه... وتعمقت الهوة بين الثقافة والسياسة وساد التخلف وباتت المشكلة الفكرية تتعامل مع النصوص من واقع التخلف، وتشكلت الأزمات وتشعبت، وحدث الفراغ الذي اتسعت هوته، وأضحى هذا التراث الموروث عاجزا عن تلبية متطلبات العصر، فكان التغريب والاستلاب الفكري أحد الأبدال الانفعالية المحدثة [59].

هذا وإن مما يجب التنويه به في هذه المقام وتتمة لما سبق بيانه فإننا نرى: (أن الفقه والفكر السياسي الإسلامي فضلا عن كونه مظهرا للاجتهاد التشريعي من أهله، ومنبثقا أساسا عن مبادئ الإسلام وأصوله العامة، اللفظية والمعنوية، ومقاصده الأساسية ـ وهذه كلها أصول نظرية، ومفاهيم ذهنية مجردة ـ هذا الفقه فضلا عن كونه كذلك، فقد أنضجته التجربة السياسية الواقعية التي عاناها معظم فقهائه المجتهدين، بحكم مناصبهم السياسية، فالدارس سيتوضح لديه

واقعية هذا الفكر الذي انعكس على الفقه الاجتهادي في التدبير السياسي عملا، بل وساعدت على إنضاجه التجربة السياسية التي عاناها الأئمة بحكم منصبهم، فقد كانوا رجال دولة من الطراز الأول وذلك كـ: "الماوردي، وأبي حامد الغزالي، والطوسي، وابن أبي الربيع، وابن خلدون، وابن تيمية... إلخ "[60].

وأما فلاسفة السياسة من غير المسلمين من مثل أفلاطون وتلميذه أرسطو من اليونان، وكذلك فلاسفة السياسة من الإنكليز من مثل هوبز ولوك، ومن الفرنسيين من مثل جان جاك روسو فلم تكن لأي منهم تجربة سياسية واقعية، لذا جاء - خطابهم- وفلسفتهم تجريدية محضة كفلسفة أفلاطون، إذ لم يكتب لها التطبيق لبعدها عن الواقع المعاش، وتحليقها في أفق من الوهم والخيال أحيانا، مما ساق إلى الاعتقاد بأن رئيس الدولة ينبغي أن يكون "فيلسوفا" فضلا عن تقريره قواعد غير إنسانية لقيامها على التمييز العنصري والرق، وكفلسفة جان جاك روسو في نظرية العقد الاجتماعي الافتراضي الموهوم.) [61].

والغزالي له تجربة رائدة في العمل السياسي داخل السلطة أو خارجها، موافقا ليصنع الواجب أو معارضا ليصحح المعوج. فلقد ترقى في وزارة الأوقاف مديرا للمساجد فمديرا للأوقاف فوكيلا للوزارة وتعد هذه مناصب سياسية، وكان يعمل كمستشار غير رسمي في الجزائر ومصر وقطر، وذلك لما كانت هذه الدول تستشيره وتستنصحه في شؤون ذات علاقة بالدين والثقافة والسياسة العامة في المجتمع...

وأما خارج السلطة فتجربته السياسية قد تمثلت في انضمامه المبكر لأكبر الحركات الإسلامية - الإخوان المسلون - واتصل بقادتها ونخبة رجالها، وكان عضوا في هيأتها التأسيسية، وعضوا في مكتب الإرشاد، وتجمع في نفسه وعقله أن الدين يقوم بعد الخلوص لله على سياسة الأمة وخدمة مصالحها، ووجد في هذه الوجهة صدى لملكاته المؤسسة، وبدأ يؤدي رسالته منافحا مناضلا عن الإسلام، وعارضا لأحكامه وقضاياه، وباحثا عن حقيقة أمته والكشف عن وسائل ترابطها بعد القطيعة والفرقة، محركا لسواكن الحس، ليشعر الأخ بحال أخيه، فيقاسمه مشاعره ويشد من أزره إحياء لسنن التكافل، وبعثا لروابط الأخوة [62].

4 - **خطاب الإيمان بقيمة الإنسان:** وأرى أن هذه أهم ميزة تنبع منها بقية الخلال، فهي لها كأصل الشجرة لبقية فروعها، ولا غرو إذا عدها الشيخ نفسه من أهم السمات التي يجب أن يتحلى بها الدعاة إلى الله، وضرورة أن يكون لهم شعور

مضاعف تجاه بني الإنسانية جميعا لما يصابون به من ويلات وكوارث مادية أو معنوية، فقد شعر الغزالي بأن أهل الأديان تلاحقهم تهمة خطيرة، أنهم لا يهتمون بتزكية الروح، وأنهم قد يدفعون المظالم عن أنفسهم، لكنهم لا يدفعونها عن غيرهم! وأن طقوس العبادات أرجح لديهم من حقوق الإنسان، تبيّن له ذلك منذ أن اشتغل في الإمامة فكان يرى ما تعانيه الطبقات الكادحة من الفقر والأزمات الخانقة، وازداد هذا الإحساس بعدما جاءته رسالة من الأمين العام لمؤسسة كبرى تعمل على دعم الفضائل والقيم بين الناس، عقدت مؤتمرها الأول في" شيكاغو" وتستعد لعقد مؤتمرها الثاني بمناسبة مرور 50 عاما على تأسيس هيئة الأمم المتحدة، وقيل له بعد اختياره عضوا: (إن مؤسستنا عالمية تضم رجالا من كل دين سماوي أو أرضي، بل تضم أعضاء لا يؤمنون بأي دين، المهم أنهم يدعمون الأخلاق الفاضلة، ويحترمون المثل العليا التي يجب أن تحكم العالم..[63].

فكتب الغزالي رسالة مطولة شرح فيها دينه ومما جاء فيها مايلي: (شعرت بالرضا وأنا أقرأ عن إنشاء جهاز عالمي لدعم الأخلاق والتسامي بالبشر، وقلت إن الفطرة الإنسانية لا تزال طيبة تعشق الكمال وتسعى إليه، وتقاوم السعار المادي الذي يربط المرء بنفسه ومآربه وشهواته، ومعروف أن العالم تقاربت أقطاره واختصرت أبعاده وأنشئت - لأول مرة في تاريخه المديد - هيئة لأممه كلها، أي أن أبناء آدم أمسوا أسرة تستطيع التقارب والتحاور ودراسة ما يثور من مشكلات، والتعاون على حلها، لكنها ستعجز عن بلوغ أهدافها إلا في ظل الاكتمال الخلقي، وكبت غرائز الأثرة والكبرياء، فهل نقصر في توفير الوسائل المنشودة لتحقيق ما نصبوا إليه؟... ويؤسفني أن الإنسانية في تاريخها الطويل احتالت على ارتكاب المظالم ورأت في اختلاف البشر - قوة وضعفا، وغنى وفقرا، وإيمانا وكفرا - ثغرة تنفذ منها إلى اقتراف ما تريد، وقد رفض القرآن الكريم أن يعترض العدالة شيء مادّيًا كان أو أدبيًا ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾[64]، ومن دواعي الدهشة أن يموت نبيّ الإسلام، ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام اشتراه لأهله! ما أثر اختلاف الدين هنا؟

إن اليهودي عاش قرير العين موفور الدم والعرض والمال في عاصمة الإسلام، هل كانت غربته سببا في أن يجور عليه أحد؟ لقد حقق الحكم الإسلامي حقوقه فعاش ومات لم يشك شيئا.

إننا نحترم الرأي والرأي الآخر. وإذا كنا – نحن المسلمين – نشكو شيئا فمواريث الضغائن التي نعامل بها في ميادين شتى، ونرجو أن تزول مع استقرار حقوق الإنسان)[65].

إننا نرى أن نشوء الغزالي في بيئة ريفية يطحنها الإقطاع ويستغلها الملاك من أرباب الباشوات والأمراء آنذاك، قد ساهمت في مضاعفة شعوره، فاختزنت تلك المشاهد في ذاكرته، وذلك لما أبصر المظالم عن قرب، وأحس بالآلام عن معايشة ومكابدة، فأثّرت في نفسه صور الفلاحين والمزارعين، وهم لا يأخذون من جهدهم وكدحهم إلا القليل، لذلك نشأ مرهف الحس، حيّ الوجدان، يقظ الضمير، مشدودا بفكره ونفسه وطاقته إلى رفع المعاناة عن الكادحين والمظلومين، وما أن التقى بالإمام المجدد حسن البنا ومضى معه في تربية الجيل المؤمن حتى أطلق الصيحات تلو الصيحات مطالبا بالعدل والإنصاف، وممهّدا الطريق للعودة إلى عدل الإسلام وتحرير المستضعفين، وقد كان يصدّر كتبه الأولى بهذه العبارة: " في سبيل الله والمستضعفين "[66].

وما أجمله وأجله من شعار ينبغي أن يكون دائما هدفا لأي كاتب أو مفكر، لأن الدعوة إنما جاءت لتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. وأيّة دعوة لا تحس بآلام البؤساء، ومواجع الضعفاء، مكتوب عليها الخيبة المنكرة والفشل البالغ، وإن استقام لها الأمر فإلى حين، وهكذا علمتنا تجارب التاريخ القريبة والبعيدة.

فالدعوة في فكر الغزالي وخطابه كانت مرتبطة بواقع الحياة، غير محلقة في أفق من الخيال والتجريد، وهذا حتى يتسنى لها معالجة قضايا الناس المعاشية.

5 -**خطاب الواقعية والاعتدال:** مما تميّز به الغزالي في خطابه الواقعية والاعتدال.

ومما يبرز هذه السمة في فكره، حملته على الآراء النظرية التي تساق مقطوعة الصلة بمن تعرضت لهم هذه الآراء بالخير والشر – على الرغم من أنّها قد تتضمن شيئا من الصحة أو تحتمل أن تكون صحيحة – لكن الفقه الصحيح يقول الغزالي: لا يرسل القول على عواهنه بل لابد له من أمرين:

1. تمحيص القضية التي تعرض عليه تمحيصا يستشف جوهرها ويستكشف خبيئها..

2 ـ الاجتهاد في تطبيق النصوص الواردة عليها أو ردّها إلى القواعد العامة لتحكم فيها إن لم تكن هناك نصوص حاسمة.) [67]، وتتجلى واقعيته في أسلوب دعوته والإلقاء وأسلوب الخطاب، فهو يذكر (أنه مضطر أحيانا كداعية للإسلام إلى التحدث في أمور أرضية بحتة مدة طويلة، لأنه لا يمكن أن أنقل إلى الملإ الأعلى رجالا نسوا كل شيء تماما، من طول ما استخدموا في الأرض واسترقوا من أصحابها..)[68].

وقد رأى الغزالي بعد تجارب عدة أنه لا يستطيع أن يجد بين الطبقات البائسة، الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة!

(إنه من العسير جدّاً أن تملأ قلب إنسان بالهدى، إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى، إذا كان بدنه عاريا، إنه يجب أن يُؤمَّن على ضروراته التي تقيم أوَدَه كإنسان، ثم ينتظر بعدئذ أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان، كثيرا ما وجدتني أعالج وعظ الناس في بيئات صرعها الفقر والمرض والجهل، فكنت أحار ماذا أقول لهم؟ هل أقبّح لهم الدنيا، كما يظن أنه مفروض على علماء الدين؟

إن الدنيا لن تكون أقبح مما عليه في أعين هؤلاء التعساء، وحاجتهم إلى من يعرفهم أركان الحياة، أمسّ من حاجتهم إلى من يعرفهم أركان الإسلام، وجمهورهم لا يدري الأساليب الصحيحة للزراعة والصناعة والتجارة، فضلا عن أن يعرف كيف يعامل ربه وإخوانه و...حكمه. أعرّفهم بالله عز وجل؟

إن معرفة الله لا سبيل إليها إلا بعد معرفة النفس فإن من عرف نفسه عرف ربه...

فلابد من التمهيد الاقتصادي الواسع، والإصلاح العمراني الشامل، إذا كنا مخلصين حقا، في محاربة الرذائل والمعاصي والجرائم باسم الدين، أو راغبين في هداية الناس لرب العالمين)[69].

6 ـ **الاقتباس من نتاج الفكر الإنساني**: كان الغزالي واسع الصدر في البحث عن الحقيقة، وفي التعامل مع المفاهيم والآفاق الإنسانية الأخرى ...

لا يرفض أي فكر ابتداء، ولا يرفض الاقتباس والمقارنة والاعتراف بالآخرين، والبحث عن جواهر الحكمة مهما كان مصدرها، وكان يرى أن هناك قواسم مشتركة بين الإسلام والفكر الإنساني العام على أساس تلاقي الوحي مع الفطرة

السليمة، بل كان يؤمن بأن الفطرة الإنسانية البريئة من العلل والعقد والخرافات والجهالات هي الإسلام نفسه، وهذا معنى أن الإسلام دين الفطرة.

ومما تميّز به خطابه وفكره عموما البعد عن التعصب للرأي والجنس، فهو لا يتعصب لفكر معين يردده أو يدافع عنه دون إقامة دليل، ولم يكن يؤمن بتفوّق جنس على آخر بل كان يؤمن بالموضوعية والإنصاف، وإعطاء كل فكر حقه، والإذعان للحقيقة والخضوع للحق، لذا كان يحرص على الاستفادة من الغير ـ مهما كان مذهبه ـ ويطلب الحقيقة من أي وعاء خرجت، يقول في هذا: (والواقع أنني أكره العنف والتحامل على الآخرين، وبقدر ذلك أكره العدوان على ديني... والافتيات على حقي، من أجل ذلك لم أتهيب أي مجتمع أدعو فيه، ولم أستوحش من الأسماء السائدة أو العناوين الشائعة للمذاهب الاجتماعية والاقتصادية المختلفة، بل من نقطة التلاقي بين الفطرة التي عرفتها بالوحي وعرفها غيري بالتجربة أو بالفلسفة أو بالعلم، من هذه النقطة أبدأ العمل لديني وأنا متمكن ومستريح. نعم قبلت ما رفضه غيري من كلمات الديمقراطية والاشتراكية – مثلا - وعن طريق الكراهية الفطرية للاستبداد السياسي والجشع الرأسمالي، أخذت أعرض من ديني النواحي المقابلة أو المماثلة، فإذا نجحت في إبراز الحقيقة ـ ويجب أن أنجح وإلا كنت داعيا فاشلا ـ انتقلت بالفرد الذي أحدثه أو المجتمع الذي أخاطبه، إلى آفاق أوسع ونواح تمس العقيدة والعبادة وسائر شعب الإيمان.) [70].

7 . **منهج نقدي واستفادة من الأخطاء التاريخية:** يقوم خطابه ومنهجه على نقد الفكرة قبل قبولها والإيمان بها، فإنه يخضعها لحكم العقل ونقده ويخضعها لموازينه ومقاييسه، فعملية الاختبار العقلي تسبق عملية التصديق، فمن غير الممكن أن نؤمن بالفكرة من قبل إثبات صلاحيتها أمام العقل، ولا يفهم من هذا أن العقل والإسلام شيئان مختلفان عن بعضهما، ولسنا الآن بصدد البحث في إشكالية موافقة العقل للنقل لأنها قضية محسومة بالأساس عند الغزالي. بل إنه ـ على غرار جمهرة العلماء والمحققين ـ كان ممن يرى أن العقل الصريح يستحيل أن لا يوافق النقل الصحيح، وفي ضرورة تزاوج العقل والإيمان واحتياج كل منهما إلى الثاني كان الغزالي يقول: (إن حدة الذكاء، ويقظة الفكر، واستثارة الرأي، عناصر لابد منها في تكوين الإيمان الصحيح، فإن الإيمان معرفة بلغت حد اليقين، وانتفت معها الريبة ... والعقول الذكية وحدها، هي

التي تميز الحق من الباطل، وتعرف حقائق الوحي من نزعات الهوى وتلفيق الضلال ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[71].

والعقول الذكية وحدها هي التي تستفيد من عبر الماضي، وتنتفع بتاريخ الإنسانية الطويل، وقصص الأبطال أو الأنذال، من المصلحين أو المفسدين: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يوسف: 111 [72].

ونرى تطبيقه لتلك القاعدة تتجلى بوضوح في خطابه أثناء دعوته لتطهير الدين من الشوائب التي ألصقها البعض به، وتخليص العقول من أوهام الجهل وعدم الخضوع أو الإذعان العقلي لفكرة لمجرد شيوعها وذيوعها، بل حتى وإن وقفت جميع أجهزة الكذب وراء ترويجها، والتأثير بها على الرأي العام، فلابد أن تمحّص وتمتحن صلاحيتها من قبل الإيمان بها وتصديقها..

ولذا نراه يقف وراء مقولة (جيش إسرائيل لا يقهر) بالتفنيد والدحض، حين طفق يحلل محتواها ومضمونها[73].

وقد كانت دعوته واضحة في وجوب الاستفادة من عبر التاريخ وأخطائه فـ(لابد من الاعتبار بأحداث التاريخ والاعتراف بتطور الحياة، وانتقال الأمم كلها إلى أحوال تغاير ما كانت عليه منذ أربعة عشر قرنا، إننا في مدى أربعة عشر قرنا أصبنا كثيرا من الأرباح، وكثيرا من الخسائر، وجدير بنا أن نتعرف سر ربحنا وخسارتنا، ومقدار ما بقي لنا أو علينا!)[74]، وربما يسوق الغزالي من هنات الأتباع، وأخطاء الحاكمين في تاريخنا، ما يبرز جوانب معتكرة، بيد أنه لا يفعل ذلك بكاء على أطلال التاريخ، ولا تضخيما لسيئات مضت، ومضى أصحابها وإنما يريد من ذلك: - إنصاف الإسلام وتبرئته من شبهات يجتهد أعداؤه في إلصاقها به.

- والتنبيه إلى أن الأخطاء تبدو محتملة، غير أنها تستفحل وتتنامى على مر الأيام..[75].

الهوامش:

---

[1] إسلامية المعرفة، مجلة فكرية فصلية محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي (عدد خاص عن الشيخ محمد الغزالي)، السنة 02، العدد 07، رمضان1417هـ/ يناير 1997م، مقال (العالم بين حدين) لـ: فهمي جدعان، ص71.

[2] عبد الحليم عويس، الشيخ محمد الغزالي (تاريخه، وجهوده، وآراءه)، دار القلم دمشق ط1، 1421هـ - 2000 م، ص 128.

[3] منير شفيق، الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر: دار طه للنشر، لندن، 1983، ص 112، ومنير شفيق نفسه تجربة مثيرة للخلاص الفكري، يقول الدكتور: محمد وقيع الله: وكم نتمنى أن يتفرغ لكتابة سيرته الذاتية، ويسجل مراحل تطوره الفكري، حتى تظفر المكتبة العربية بمنقذ آخر من الضلال.

[4] أنظر مثلا: د: مصطفى حلمي "الحاصل على جائزة فيصل العالمية في مجال العقيدة الإسلامية" في حوار أجرته معه مجلة المجتمع الكويتية، إذ سئل عن أهم الشخصيات التي مارست تأثيرا على مسيرة الأمة الفكرية طوال هذا القرن؟ فذكر في مقدمة من ذكر الشيخ الغزالي، وفي سؤال طلب منه فيه تقديم رصد لأهم الشخصيات في القرن العشرين، فذكر الشيخ محمد الغزالي والدكتور يوسف القرضاوي كرواد لمدرسة التجديد. ـ مجلة المجتمع العدد(1380)- السنة (30)- (06- 12 رمضان 1420هـ)- الموافق (14- 20 ديسمبر)

ويقول عبد الصبور شاهين رحمه الله:...وقد قرأت الدنيا له عشرات الكتب في الإسلام ودعوته، وتلقت عنه ما لم تتلق عن أحد من معاصريه، حتى إن عصرنا هذا يمكن أن نطلق عليه في مجال الدعوة عصر الأستاذ الغزالي، وكان الإمام الأكبر عبد الحليم محمود يُقدّر الغزالي ويعرف له حقه وفضله، ويفخر به ويعتز ويقول: ليس لدينا إلا غزالي الإحياء وغزالي الأحياء يقصد أبا حامد صاحب الإحياء والغزالي المعاصر. ـ ومعلوم أن الغزالي قد ظل على نصف قرن ونيّف من جهاده الفكري، يحارب في مختلف الجبهات الداخلية والخارجية، وقد هبت في وجهه مختلف الجبهات المتناقضة في تفكيرها، والمتحدة من حيث الاعتراض على أفكاره، ومنطلقاته التجديدية، وقد كانت إصطدامات عنيفة حقا إذ لم يكن الشيخ هو الآخر ممن ينحنون للعواصف، أو يتلطفون في العراك الفاصل، ودارت رحى جدال عنيف حام، أصلى فيه الشيخ معارضيه من العلمانيين وأولياء الجمود والتبعية، مثلما أصلوه من قارص القول وحديد الكلم، ولكن المعركة انجلت في النهاية لصالح الفكر التجديدي المستقبلي الذي نافح عنه الشيخ، وانكسار واضح لقواعد الجمود والتقليد وتيارات الغزو الفكري، التي توطدت في بلادنا منذ زمن بعيد، ولقد كان ذلك البلاء الفكري هو بعض ما أهله لأن تعده الدكتورة: إيفون حداد – إحدى خبيرات الفكر الإسلامي في الغرب - واحدا من أقوى العلماء الذين تصدوا لغزوة الأفكار الغربية الحديثة، التي كان من الممكن ـ كما قالت ـ أن تصيب الإسلام بمثل ما أصيبت به المسيحية واليهودية في أوربا. وقد خصت بالذكر الأثر الذي

تركته ثلاثة من كتب الشيخ هي: ـ معركة المصحف في العالم الإسلامي ـ وكفاح دين ـ وقذائف الحق. أنظر:

muslim revivalist thought in the arabe world " " hadad. Yvonne y ـ the muslime world (october 1986) ; p.146-147.

ـ أنظر: إسلامية المعرفة، ص 105 – 106.

(5) انظر: العطاء الفكري للشيخ الغزالي، ص 43 - 44.

(6) للمشابه التي تتبدى أثناء دراسة خطاب حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، وخطاب محمد الغزالي ـ وهذا من ناحية التأثير وانتهاج أساليب مميزة ومحددة لتبليغ الخطاب في الوسط الذي وجد فيه كل واحد منهما ـ عمدنا إلى تطبيق رؤى مسألة مهمة ذكرها الدكتور: أنور الزعبي أثناء دراسته لإشكالية خطاب أبي حامد الغزالي على خطاب الغزالي معاصرنا، وذلك حتى نجلي مكمن السر في ذلكم التأثير الرابض وراء سلطته الخطابية المتميزة.

(7) أنور الزعبي، مسألة المعرفة ومنهج البحث عند الغزالي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي + دار الفكر للنشر والطباعة والتوزيع، ط01، 1984، ص 34 (بتصرف).

(8) محمد الغزالي، ليس من الإسلام، الدار الشامية بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ – 1999م، ص 5 – 6.

(9) أنور الزغبي، مرجع السابق، ص 36 – 37.

(10) الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص173، وفي الكتاب نفسه نجد قوله:(نحن نعتقد أن المستقبل لنا لا علينا، وأن حكمنا الذي انهار سيقوم مرة أخرى شامخا عزيزا، وأن اليهود الذين يعربدون في منطقتنا، ولهم على حكام العرب صولة، ستخمد نارهم وتذوب دولتهم، وأن المد الصليبي والشيوعي والوثني ستتبدد قواه، ويعقبه جزر عميق. نعم.. فللإسلام جولة أخرى لا تقوم الساعة إلا وقد بلغت مداها، ورفعت سناها، وتالي القرآن الكريم المتدبر معانيه يلحظ ذلك في مواضع كثيرة... الرسم البياني لمسير الإسلام في العالم متموج مضطرب، قد يسمو فيصل إلى القمة، وقد يهبط حتى يمس القاع، وليس ذلك مستغربا عندما نلاحظ السنن الكونية التي تحكم دنيانا، فان هذه السنن تقلب الناس بين السراء والضراء، وتلك الأيام نداولها بين الناس).

- الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص 193- 194.

(11) أنور الزعبي، المرجع السابق، ص 39.

[12] محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص 169 - 170، دار الهدى، الجزائر.

[13] المصدر نفسه، ص 170.

[14] الحركات الإسلامية والديمقراطية، ص 230

[15] المصدر نفسه، ص 231. وانظر: خالص جلبي، في النقد الذاتي للحركة الإسلامية، ط 3 بيروت، مؤسسة الرسالة 1985، ص18.

[16] [سبأ آية 46].

[17] هذا علي الرأي الفلسفي المعروف وهو: (الشك أول مراتب اليقين).....

.... وقد نبّه باحثون أجلاء إلى دور الإمام الغزالي (405- 505هـ) في هذا الميدان، فكتابه " المنقذ من الضلال " هو ترجمة ذاتية رائعة لمفكر وقع فريسة للشك، ثم تنقل عبر العلوم وطرق الاستدلال بحثا عن اليقين حتى وجد في طريق الصوفية سبيله إلى اليقين..فهو معلم من معالم التراث، تراث الإنسانية في اتخاذ الشك سبيلا لليقين..ولكن شك الغزالي - وكتابه الذي عرض فيه تجربته - كان قضية خاصة ومشكلة ذاتية، ولم يكن منهجا دعا إليه الآخرين، شأن المناهج العلمية التي يهندسها العلماء فيقدمونها للناس..كما أن النهاية التي أثلجت صدر الغزالي باليقين - وهي ذوق الصوفية وكشفهم - لا تجعل شكه هذا " الشك المنهجي " الذي يستخدمه العلماء في البحث بميادين الفلسفة والعلوم، لأن " الشك المنهجي" الذي تعارف عليه العلماء والفلاسفة قلما يقود إلى مثل تلك النهايات..

- أنظر: التراث والمستقبل لـ: محمد عمارة، دار الرشاد، ص382.

فوجب التنبه إلى هذا لأنه من مجموع آراء شاعت قبل القراءة والتأصيل، وممن عرج على ذكرها وعالجها معالجة دقيقة شيخ الإسلام مصطفى صبري في كتابه "موقف العلم والعقل والعالم..".

وهاهو ذا الدكتور: محمد عمارة ينبه إلى ذلك، وهو يرى أن هذا المنهج العلمي أليق أن يكون ثمرة من ثمار أولئك الذين أعلوا من شأن العقل، فنزعوا القداسة عن الانطباعات الأولية والملاحظات غير المؤكدة، فضلا عن المأثورات.. والجاحظ واحد من أعلام هذا التيار في تراثنا وحضارتنا.. وهو يعرض لهذا الموقف المنهجي باعتباره منهجه في كتاب " الحيوان ".

- انظر التراث والمستقبل لمحمد عمارة: ص 382 – 388

[18] محمد الغزالي، في موكب الدعوة، منشورات دار الكتب الجزائر (بدون تاريخ)، ص149 - 150

[20] أنور الزعبي: (مصدر سابق)، ص 43.

[21] محمد الغزالي، في موكب الدعوة، ص 213 – 214.

[22] محمد الغزالي (مع الله دراسات في الدعوة والدعاة) ص 218. دار القلم، دمشق، ط 4، 1421هـ - 2000م.

ويدعو الغزالي أي داعية يشعر بغربة في ميدان الأدب أن يترك ميدان الدعوة لفوره، فان الذي يحاول خدمة الرسالة الإسلامية دون أن يكون محيطا بأدب العربية في شتى أعصارها، إنما يحاول عبثا، الداعية لابد أن يدرس آداب العربية القديمة والحديثة، وأن يدرب نفسه على الأداء العالي والعبارة الرائقة، وليس القصد أن يكون كلامه إنشاء ا منمقا، كلا. فهذا مزلقة له ولرسالته، وإنما القصد أن يحسن صوغ العلم النافع والحقائق الركينة، في أسلوب يبرز ما فيها من نفع وقوة. وقد قالوا: الخط الحسن يزيد الحق وضوحا، وكذلك القول الحسن والخطاب الجميل).

- مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، ص 218 - 219..

[23] إسلامية المعرفة: مقال: يوسف القرضاوي، (نظرات في تراث الشيخ محمد الغزالي)، ص19.

[24] أنور الزعبي (مصدر سابق)، ص 43.

[25] محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ص.

[26] محمد يونس، ، تجديد الفكر الإسلامي، (قراءة في تجربة الشيخ الغزالى)، دار القلم، القاهرة، ط 1، (1419هـ- 1999م). ص

[27] الشيخ محمد الغزالي. (حياة وآثار، شهادات ومواقف)، جمع: نصر الدين لعرابة: شركة دار الأمة، الجزائر، الطبعة الأولى، (1998 م) ص165.

[28] محمد الغزالي، الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة الجزائر، ص172 - 173.

[29] الخطابات المنزوعة أو البائدة: التي كانت سائدة في فترة ما ثم انزاحت أو بادت لحساب خطاب استجد وساد.

الخطابات الطارئة أو الوافدة: وهي الخطابات التي تحاول أن تنزع السيادة لصالحها بشكل أو آخر.

الخطابات السائدة: التي تغلبت ضمن الحقبة المعنية، وأصبحت عرضة للتنازع بين الخطابات البائدة والخطابات الوافدة.

ـ انظر: أنور الزعبي (مصدر سابق)، ص 44.

(30) أنور الزعبي، المصدر السابق، ص 44.

(31) محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، دار القلم دمشق، ط1، 1407هـ – 1987م. ص06.

(32) أحمد بهاء الدين، المثقفون والسلطة في عالمنا العربي، (كتاب العربي 38)، ص21.

(33) أنو الزعبي، المرجع السابق، ص 44.

(34) محمد الغزالي، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ص07.

(35) (الشيخ محمد الغزالي حياة وآثار شهادات ومواقف) مقال: محمد رجب البيومي، ص165.

(36) محمد الغزالي، الإسلام في وجه الزحف الأحمر، ص 04.

(37) العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، (حلقة دراسية) الطبعة الأولى (1417هـ-1996م) المعهد العالمي للفكر الإسلامي/ مكتب الأردن، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية / مؤسسة آل البيت، جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية. مقالة السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي، لـ: علاء محمد الغزالي، ص 197.

(38) هذا هو الكتاب الثالث الذي مثلنا به من جملة كتب ثلاث للشيخ، والتي برزت فيها مدافعة جلية لهذه الخطابات.

(39) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، دار ريحانة، الجزائر 1420 – 1999م، ص21.

(40) محمد الغزالي، في موكب الدعوة، ص 224.

(41) محمد الغزالي، هموم داعية، ص 16.

(42) محمد الغزالي، هموم داعية، ص 119.

(43) يذكر محمد وقيع الله انتقاد المستشرق هاملتون جب لرشيد رضا واصفا هذا الانتقاد بأنه طريف مثلما كان ثاقبا، وذلك لاستبداله ابن تيمية بأبي حامد الغزالي لتوجيه المدرسة السلفية الحديثة، فيقول: (صحيح أن أبا حامد انتقد الفلسفة اليونانية وأبان عن تهافتها وعوارها، إلا أنه ظل – بسبب استمرار تأثره بها – أقرب إلى قلوب المستشرقين من منطق الأصالة الصارم لابن تيمية، كما كانت تعاليم إبن تيميه أقرب إلى تحريك الحركات السياسية وتعبئتها من تعاليم الغزالي، ولذلك فلا عجب أن كان الغزالي ومحمد عبده أقرب إلى عقل جب وقلبه من ابن تيميه ورشيد رضا. يراجع كتابه: modern trends in islam -(Chicago univ. Press ;1949 p 34.

ـ وليس هذا الطرح بالذي يؤخذ هكذا دون وقفة ومراجعة ابتغاء تقويم معوجه وتصحيح سقيمه، لأنه مما عُمّم، ولم يأخذ حظه من الدراسة والتأصيل الدقيق، وهذه الفكرة وغيرها مما أشيعت عن الغزالي وذلك من مثل قولهم (أن أبا حامد بلع الفلاسفة لكنه لم يستطع أن يتقيأهم)، وقولهم: (بأنه كان يسبح في غمرة تصوفه، والعدو الصليبي يغزو بلاد الإسلام ويدوخ أطرافه.)

هذه الشائعات وغيرها لم تأخذ نصيبا من التمحيص والغربلة، ولو علم الناس الحق فيها لرجعوا عن القول بها أو اعتقاد صوابيتها كلا، وليس هذا المقام بالذي يسمح بتبيان الحقيقة كاملة وبسطها، وإنما يهمنا ما نحن بصدد ذكره الآن وهو دعوى أن الغزالي لم تكن تعاليمه بالتي ترقى إلى مقام تعاليم ابن تيمية في تعبئة الحركات السياسية وتحريكها، فمثل هذا القول سببه التفكير الجزئي والنظر الظاهري اللذان لا يحيطان بمكونات الأحداث، ولا ينفذان إلى مقدماتها ونتائجها. وهو جهل بالمنهج الذي اختاره الغزالي وبنى عليه عمله ودليل ذلك أسباب:

- **الأول:** إن منهجه في تطبيق مبدإ الانسحاب والعودة أصبح مثلا إحتذاه جمع غفير من مختلف المذاهب والجماعات الإسلامية، حيث توقف هؤلاء عن الصراعات والخلافات المذهبية، وانصرفوا إلى خاصة أنفسهم، حتى إذا زكت نفوسهم عادوا إلى المجتمع من جديد، ليسهموا فيه متعاونين متوادين لبنائه وإصلاحه.

- **الثاني:** هو ما ترويه المصادر عن عزم الغزالي على المضي إلى يوسف بن تاشفين سلطان المغرب المرابطي لما بلغه من عدله، وذلك بغية أن يحضه على النهوض بدار الإسلام، ولما بلغه موته في الإسكندرية قطع رحلته وعاد. كما نقل ذلك السبكي في طبقاته. ج04، ص105.

- **الثالث:** هو أثره في محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين في المغرب الذي سافر إلى بغداد، وتتلمذ على الغزالي وغيره، فتأثر بأفكاره وعاد ليطبقها في المغرب، كما يذكر ذلك ابن خلدون. ج06، ص226، بيروت، مؤسسة الأعلمي. بلا تاريخ.

الرابع: وهذا أهم جوانب الأثر الذي تركه الغزالي، وهو ما ترتب على جهوده من انحسار للتيارات الفكرية المنحرفة التي نمثلها الباطنية والفلاسفة فركدت سوقها بين الجماهير وآل أمرها فيما بعد إلى البوار والسقوط.

وهكذا فجّر الغزالي حركات الإصلاح التي تتابعت حلقاتها بعده، حتى انتهت بدحر الغزاة الصليبيين، واسترجاع الأرض والمقدسات.

ـ انظر: ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عاد القدس، ص 115 وما بعدها، وص 196 – 197، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي. 1416هـ ـ 1995م.

(44) ذلك هو زعم الدكتور: طه حسين الذي كان يميل لإعطاء تلك الوراثة للشيخ مصطفى عبد الرازق 1885 - 1947.

ومع جدارة الشيخ عبد الرازق، واجتهاداته فيما يتصل بمناهج البحث وتأصيل الفلسفة الإسلامية، إلا أن جهوده لم تكن تتصل مباشرة بالخط السياسي الاجتماعي، وإنما ظلت حبيسة أطر الأبراج الأكاديمية.

ـ انظر إسلامية المعرفة، ص 106 - 107.

(45) محمد عمارة: الشيخ الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، ص36- 40.

(46) المرجع نفسه.

(47) محمد الغزالي، ظلام من الغرب، ص 104.

(48) محمد الغزالي، من هنا نعلم، (الجزائر: دار الكتب)، ص39.

(49) إسلامية المعرفة، (مصدر سابق)، ص 107- 108.

(50) مالك بن نبي: شروط النهضة (دمشق: دار الفكر، 1401)، ص53.

(51) من أمثلة تلك الكتب دراسات الدكتور عبد الحميد متولي، وقلما تجد في مطولاته:(مبادئ نظام الحكم في الإسلام) أدنى إشارة إلى الإطار الكلي الإسلامي، أو إلى روح الدين التي تصوغ الحكم والرعية، وتشكل ضمانة فعالية النظام الإسلامي.

(52) من البديهي التسليم بضرورة التخصص في إطار بحثي ضيق لاستخراج نتائج علمية محددة، ولكن من الخطل الفكري والمنهجي الفادح أن ينظر إلى الإنسان مثل تلك النظرة التجزيئية، التي تعامل بها حيوانات المعامل أثناء البحث، وفي هذا الذي عرضنا لذكره يمكن مراجعة الكتاب القيّم لـ: floyd w. matson / the broken image. Man, science and societey, (New York l George braziller,1964 - ....

... وهو يحتوي على نقد لتجربة العلوم الاجتماعية عن النظرة الشاملة، واستبعادها للقضايا الميتافيزيقية، واستعراض لمغبة ذلك على حياة الإنسان المعاصر. وبلغة مناهج البحث يمكن أن يقال أن عوامل التغيير هي دوما عوامل متفاعلة، بمعنى أنها عوامل مؤثرة في عوامل أخرى ومتأثرة بها في الوقت ذاته، ويندر إن لم يستحل وجود العامل المستقل، وإن كانت العلوم

الاجتماعية الحديثة توهم بإمكان وجود مثل ذلك العامل، وإن أمكن وجود مثل ذلك العامل بالفعل، فإنه يبدو مستقلا فقط في إطار علم اجتماعي محدد، ولكنه يبدو متأثرا بعوامل أخرى حين فتح مجال الدراسة على تخصصات علمية أخرى، ولذلك يتحتم على أصحاب التخصصات الضيقة مثل علم النفس والاقتصاد والتاريخ أن يتفتحوا كثيرا على العلوم الأخرى المجاورة لتخصصاتهم، فضلا عن التمكن في الفكر الإسلامي من منابعه وأصوله، وذلك بالطبع لكي يتبلور اجتهاد إسلامي صلب وأصيل في مجالات العلوم الاجتماعية، ولكي تضم أجزاء الإسلام بعضها إلى بعض، وحتى لا يبتر أي جزء منها بحجة عدم ملاءمته لأوضاع الناس اليوم. إسلامية المعرفة ص: 108 ـ 109

وقد كان الغزالي حريصا على التذكير بوجوب تبحر علماء الإسلام في المعارف كلها، وأن تتضمن مناهج دراساتهم إلى جانب العلوم التقليدية الدراسة الموسعة للفلسفة في شتى عصورها، والتوسع في علم النفس والأخلاق والطبيعة والكيمياء والأحياء وعلوم الحساب والجبر والهندسة، والتوسع في دراسة التاريخ المحلي والإسلامي والعالمي، ودراسة جغرافية العلم كله، وذلك لسببين رئيسيين:

1 ـ صقل الفكر والإعانة على تكوين الأحكام الصائبة، لأن الحقائق الشرعية لا تفهم على واقعها الصحيح إلا بهذه المعرفة..

2 ـ ولأن مع رحابة الفكر تكون رحابة الصدر، وإدراك وجهات النظر الأخرى، بغير تضخيم ولا تهوين، وينتهي الأمر حينئذ ألا يثور المرء إلا لأمور ذات بال من الأمهات والأصول، ومن ثم ينجح الخطاب الإسلامي في إيصال مضامينه إلى الآخرين.

(53) عبد الحليم عويس، الشيخ محمد الغزالي (تاريخه، وجهوده، وآراءه)، دار القلم دمشق ط1، 1421هـ- 200 م، ص124- 126 (بتصرف).

(54) إسلامية المعرفة، مقال: (قصة حياة)، ص187.

(55) محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص196- 197.

(56) محمد الغزالي، الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين، ص10.

(57) محمد الغزالي، الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين، ص4.

(58) محمد الغزالي، (المصدر السابق)، ص 78- 79 (بتصرف).

(59) العطاء الفكري، (مصدر سابق)، ص44.

(60) أما الإمام الماوردي فقد كان وزيرا لدى الخليفة القادر بالله العباسي، وأثناء ذلك ألف كتابه المعروف: " قوانين الوزارة وسياسة الملك " فضلا عن كتابه الأحكام السلطانية، وأما الطوسي

فكان وزيرا لدى السلاجقة وكان له من قوة الأثر في الحكم - بفضل علمه الواسع وتجربته السياسية – ما جعله هو الحاكم الفعلي في تلك الدولة، فاكتسب بذلك تجربة أو حنكة سياسية فضلا عن غزارة علمه، مما كان له أثر في فقهه السياسي. والعلامة ابن خلدون الذي تولى القضاء في المغرب، وفي غرناطة عينه محمد بن يوسف بن إسماعيل بن الأحمر عضوا في مجلسه، وبعثه سفيرا ممثلا عند الأذفونش ملك قشتالة، حيث أدى مهمته بنجاح، فكافأه السلطان بإقطاعه قرية البيرة، وفي مصر 786هـ /1374م. تولى قاضي قضاة المالكية حين عينه السلطان برقوق، وكذلك الإمام أبو حامد الغزالي، وابن تيمية. فكانت هذه (المشاركة السياسية) سببا في إثراء فقههم، وبحوثهم النظرية بالخبرة السياسية العملية.

(61) فتحي الدريني، خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم، ص348- 350 (بتصرف).

(62) العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، مصدر سابق، ص13.

(63) إسلامية المعرفة، مقال: (قصة حياة)، ص150 (بتصرف).

(64) النساء: 135

(65) المرجع نفسه، ص151- 153.

(66) العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، (مصدر سابق) ص28.

(187) محمد الغزالي، الإسلام المفترى عليه، ص 137 (بتصرف).

(188) محمد الغزالي، من هنا نعلم، ص 188.

(69) محمد الغزالي، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ص61 – 62.

(70) إسلامية المعرفة، مصدر سابق، ص201.

(71) الرعد: 19

(72) محمد الغزالي، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ص 194 - 195.

(73) راجع في ذلك كتبه: حصاد الغرور، اليهود المعتدون ودولتهم إسرائيل. هموم داعية. جهاد الدعوة، ص 151 – 163 تحت عنوان: الجيش الذي لا يقهر أكذوبة لها تاريخ. دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، (1420هـ- 1999م).

(74) محمد الغزالي، ظلام من الغرب، دار الاعتصام، ط 3، (1399هـ – 1979 م)، ص 276- 277.

(75) محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار القلم دمشق، 1421هـ- 2000 م. ص138- 139 (بتصرف).